أولا: حياته ثقافته أثاره الأدبية

1- حياتـــــه:

أبو قاسم الشابي بن محمد بن أبي القاسم الشابي ولد في الشابية إحدى ضواحي " توزر" بلاد الجريد بالجنوب التونسي[1] .

في اليوم الثالث من شهر صفر لعام 1327 هـ الموافق 1909 م، وينسب إلى أسرة محبة للعلم عريقة في علوم الدين،إذ كان أبوه الشيخ محمد بن أبي القاسم الشابي قاضيا شرعيا، وكان أبو القاسم حينئذ ابن عام واحد فتنقل مع والده القاضي الشرعي في كثير من البلاد التونسية، وهكذا تأتي لأبي القاسم أن يشاهد الطبيعة التونسية الخلابة،ويتأثر بهذه المشاهد مما ساهم في اتساع خياله، وتوقد قريحته وقدرته على إبراز هذه الانطباعات شعرا رائقا عذبا[2] .

لكن إذا سره الدهر يوما فقد كدره أياما ، فكانت فاجعته الأولى بموت حبيبته التي أحبها حبا عذريا في أول شبابه، قبل أن يبلغ العشرين من عمره،فأذكى موتها في نفسه حزنا شديدا ومرضا أنطقه شعرا كثيرا، وفتاته هذه التي عشقها وأحبها كانت محنة اضطر أهله أن يزوجه عام 1928 قبل أن يتخرج من كلية الحقوق،علّه ينسى أو ينشغل عن حبه الذي أورثه أول حزن في حياته[3] ،وعن هذا الزواج يحدثنا زين الدين العابدين السنوسي أحد الذين تربطهم بالشاعر علاقة وثيقة " أن والده كان يحب أن يتخذ ولده لنفسه عرق خلود وبقاء "[4] .

وقد تضاربت الآراء في شأن نجاح هذا الزواج ففي حين يؤكد السنوسي أنه كان زواجا سعيدا ناجحا، يرى آخرون أن هذا الزواج كان فاشلا،لأن سلوكه العاطفي في ديوانه لا يدل على أنه كان زواجا سعيدا،ذلك أن المرأة الفاضلة التي تزوجت برجل عليل مصاب بمرض في قلبه،لم يذكر شيء من عطفها وحنانها في ديوانه ولا خصها ببيت واحد يدل على

---

(1) – عباس صادق: موسوعة أمراء الشعر العربي ، دار أسامة للنشر والتوزيع، الأردن – عمان ، ط 1 ، 2002 ، ص 86 .

(2) – أبو القاسم الشابي:الديوان، دراسة وتعليق أحمد محمد عبد الهادي ، مكتبة الأدب، القاهرة، 2006 ، ص 4–5 .

(3) – يوسف عطا الطريفي: شعراء أعلام، أبو القاسم الشابي حياته وشعره ، مكتبة لبنان – بيروت ، ط 1 ، 2009 ، ص 12–13–14.

(4) – زين العابدين السنوسي: أبو القاسم الشابي حياته وأدبه، تونس 1386 هـ –1956 م ، ص 27 .

محبته لها،أو امتنانه لما كان يلقاه من حبها وحسن معاملتها[1] . بالإضافة إلى الصدمة التي تلقاها الشاعر في زواجه، وفي حبه الأول،فقد تعرض إلى كارثة كبرى تمثلت بوفاة والده في شهر أيلول من العام 1929 لتتحول تبعات العائلة على عاتقه ويصبح مسئولا على أسرته،وهو مازال في سن مبكرة،وهذه الكارثة أثرت على صحته وأصابت قلبه إصابة مباشرة[2] . ليشكل مرض الشابي أكبر مأساة له ويبدوا أنه كان يعلم بمرضه لكن أعراض الداء لم تظهر أثارها إلا عام 1929 فكان منذ بداية عمره عليلا ضعيف البنية نحيلا لكن علته لم تظهر أثارها إلا في السنوات الست الأخيرة من حياته التي كانت ذروة إنتاجه الأدبي[3] .وقضى الشابي صيف 1932 مستشفيا متنقلا بين المصايف والمنتجعات، لكن ذلك لم يجده نفعا لتسوء حالته في آخر عام 1933 فاضطر إلى ملازمة الفراش وحرم عليه أطباؤه الكتابة والمطالعة، وأخيرا أعيا الداء على التمريض المنزلي، فتنقل الشابي إلى مستشفى الطليان بالعاصمة،الذي توفي فيه في التاسع من تشرين الأول، عند الساعة الرابعة صباحا من نهار الإثنين عام 1934 م. ونقل جثمانه إلى بلده توزر حيث وري الثرى في مثواه الأخير .

وقد نال الشابي بعد وفاته عناية كبرى،وتألفت لجنة عام 1946 لإقامة ضريح له نقل رفاقه إليه باحتفال مهيب في الثالث عشرة من شهر أيار سنة 1947 حضره جمع غفير من رجال العلم والأدب والسياسة[4] .

فأبو القاسم الشابي لم يعش طويلا،لكنه ترك أثار عظيمة من النثر والشعر، فهو أحد الشعراء الثلاثة الذين قضوا قبل الثلاثين ،فكان طرفة بن العبد أولهم ،ثم فراس ثانيهم وكان آخرهم أبا القاسم الشابي، الذي مات عن خمس وعشرين سنة، وقد فاق غيره حين أبدع

---

[1] – أبو القاسم الشابي:الديوان، تقديم وشرح راجي الأسمر، دار الكتاب العربي، بيروت ، ط 2 ، 1415 هـ –1994 م ص 10–11 .

[2] –أبو القاسم الشابي:الديوان، تقديم وشرح راجي الأسمر ، ص12 .

[3] – يوسف عطا الطريفي :أبو القاسم الشابي حياته وشعره، ص 14 .

[4] – أبو القاسم الشابي:الديوان، تقديم وشرح راجي الأسمر، ص 15 .

وحلق ولا يزال صوته في مسمع الدنيا مدويا مؤثرا،ولا تزال كتب الأدب تشيد بهذا التراث العظيم الذي لا ينضب[1] .

2- ثقافته:

بدأت رحلة أبي القاسم مع العلم والمعرفة منذ نعومة أظفاره،حيث ألحقه والده بالمدارس التقليدية " الكتاب " فأتم حفظ القرآن الكريم، وهو ابن تسع سنين وفي سنة 1920 أدخله والده إلى جامع الزيتونة بتونس، ليكمل دراسته العلوم الدينية، واللغوية فأمضى فيه ما يقارب تسع سنين، ليتخرج عام 1928 وقد حاز على شهادة " التطويع " مثل والده،وكانت هذه الشهادة من أرفع الشهادات في ذلك الحين[2] . وقد التحق بعد تخرجه من جامع الزيتونة عام 1928، بمدرسة الحقوق التونسية فتخرج منها سنة 1930[3] .

كما كان له ميل شديد إلى المطالعة، فحصل بها ثقافة واسعة، جمع فيها ما بين التراث العربي القديم، ومعطيات الفكر الحديث، والأدب الحديث ،وغذى مواهبه بأدب النهضة في مصر، ولبنان والعراق وسوريا ،والمهجر من آداب الغرب،لأنه كان يجهلها وقد أعجب بكتب " لامرتين " و" جوته " إضافة إلى قراءته لما كان يصدر من مجلات عربية كالهلال والمقتطف وغيرها [4] .

3- أثار الشابي الأدبية :

ترك الشابي أثار أدبية ونثرية وشعرية أهمها :

أ– ديوانــه : الذي أسماه أغاني الحياة [5] .

ويقع في مئة وأربع وتسعين صفحة، ويظم إحدى وتسعين قصيدة، ومقطعا من بيتين أو ثلاث،ويبدو أن الشاعر أشرف شخصيا على اختيار الأشعار،التي رضي أن يحتويها

---

[1] – أبو القاسم الشابي:الديوان، دراسته وتعليق أحمد محمد عبد الهادي، مكتبة الأردن، القاهرة،ط1،2007 ص 3 .

[2] – يوسف عطا الطريفي:أبو القاسم الشابي حياته وشعره، ص 11 .

[3] – يوسف عطا الطريفي:أبو القاسم الشابي حياته وشعره ،ص 12 .

[4] – عباس صادق: موسوعة أمراء الشعر العربي، ص 86 .

[5] – محمد سعد فشوان: مدرسة أبولوا الشعرية في ضوء النقد الحديث، مكتبة الدراسات، دار المعارف، (بدون سنة)، ص 220 .

ديوانه وقد تولى أخوه محمد أمين الشابي،طبع الديوان بعد وفاة الشاعر[1] . بإحدى وعشرون سنة لينشر الديوان عام 1955[2] .

ب– الخيال الشعري عند العرب:

محاضرة ألقاها الشاعر في قاعة الخلدونية، تحت إشراف النادي الأدبي التابع لجمعية قدماء خرجي المدرسة الصادقية، في تونس يوم 30 شعبان 1347 هـ –1929 م فجعل ينظر إلى الشعر عامة موضحا المرتكزات النظرية التي أمن بها،ويقع الكتاب في مئة وأربعين صفحة،وموضوعه هو دراسة نقدية مقارنة بين الخيال الشعري عند العرب والأوربيين[3].

ج– المقبرة :

رواية غير منشورة ذكرها الأستاذ كرو، نقلا عن الأستاذ زين العابدين السنوسي في كتابه " الأدب التونسي في القرن الرابع الهجري[4] .

د– جميل بثينة :

قصة جميلة موجودة عند شقيقه الأستاذ أمين الشابي .

هـ– شعراء المغرب العربي :

دراسة لكتاب الأدب العربي في المغرب الأقصى،للأستاذ محمد العباسي القباج تناول فيه الشابي، الجزء الخاص بالشعراء الشباب بالدراسة والتحليل .

و– يوميات الشابي :

مذكرات يومية كتب فيها الشابي خواطره .

ز– رسائل الشابي :

التي وجهها لأصدقائه،ومن أشهرهم محمد الحليوي، أحمد زكي أبو شادي،إبراهيم ناجي، وهي تحمل الكثير من وجهات نظره .

---

(1) – أبو القاسم الشابي:الديوان ،تقديم وشرح راجي الأسمر ، ص 15 .

(2) – أبو القاسم الشابي:الديوان، تقديم وشرح راجي الأسمر ، ص 10 .

(3) – إبراهيم خليل : مدخل لدراسة الشعر العربي الحديث، دار المسيرة للنشر والتوزيع، عمان – الأردن، ط 2 ، 2007 ، ص 183 .

(4) – أبو القاسم محمد كرو: الشابي حياته وشعره منشورات دار مكتبة الحياة، ط 2 ، 1960 ، ص 136 .

ح– الأدب العربي في العصر الحاضر :

دراسته قصيرة تقع في إحدى عشرة صفحة،قدم بها ديوان " الينبوع " للشاعر أبي شادي ضمنها أراء في الأدب الحديث ورأيه في الشاعر الدكتور أحمد زكي أبو شادي .

ط– السكير : مسرحية ذات فصلين .

ي– الهجرة المحمدية: محاضرة ألقاها،بمناسبة ذكرى الهجرة المحمدية في سنة 1351 هـ في نادي الطلاب .

ك– مقالات مختلفة :

نشرها في العديد من الصحف العربية في مصر وتونس أهمها :

1– النفس التائهة .

2– اليقظة الإسلامية الحاضرة .

3– الشعراء ماذا يجب أن يفهم منهم وما هو مقياسه الصحيح .

4– أيها القلب .

5– أغنية الألم .

6– صفحات دامية من حياة شاعر .

7– روح ثائرة .

8 – يقظة الإحساس وأثرها في الفرد والجماعة .

9– الشعر والشاعر عندنا .

10– لصوصية الشعر .

11– الفنون والنفس العربية[1] .

ثانيا: صدى الشابي في الشرق العربي

يتمتع الشابي في الوطن العربي بمكانة عظيمة،يعود الفضل فيها إلى الشابي أولا وقبل كل شيء، وإلى عبقريته وإلى ما في أدبه من دور وخصائص، تثير الاهتمام وتمتلك الإعجاب ،فطالما ردد أبناء الشعوب العربية شعره، وتغنى به المطربون[2].

---

[1] – أبو القاسم محمد كرو: الشابي حياته وشعره، ص 120–132 .

[2] – يوسف عطا الطريفي : شعراء أعلام، أبو القاسم الشابي حياته وشعره، ص 108.

ولهذا يحتل مكانة سامية،في قلوب ونفوس جيلنا المعاصر سواء في المشرق أو في المغرب العربي، والظروف المساعدة التي أسهمت إلى أبعد حد في إعلاء شأن الشابي وذيوع شعره،وإحلاله مكانة سامية بين شعراء العرب المعاصرين،هو اتصال الشابي بمجلة أبولو، ووثوق الصلة بينه وبين صاحبها أبو شادي الذي اهتم بالشابي وشعره الذي استطاع أن يشق طريقه،وأن يفرض وجوده بين عشرات بل مئات الشعراء، العرب في جميع الأقطار العربية،ليكون الشابي مفاجأة رائعة سارة،استطاع أن يثبت وجوده وشاعريته فمن كان يعتقد أن في تونس شاعرا ممتازا كالشابي، بل من كان يظن أن في بلاد العرب جميعا شاعر في روعة الشابي[1].

رابعا: صدى الشابي في العالم

ترجم العديد من شعر الشابي إلى الفرنسية،ونقلت له مجلة " أبلا " الفرنسية ثلاث قصائد في أعدادها السادس والثلاثين ،والسابع والثلاثون،كما ترجمت بعض قصائده إلى الإنجليزية والسويدية، وأصدر أبو القاسم محمد كرو كتابا عنه بالفرنسية[2] . وذهب الشاعر الإيطالي " قويدوميدنيه " إلى القول في كتابه إفريقية " إذ ما تحرك النخيل وداعبته الرياح، فأنا لا أفكر إلا فيك يا شابي، أنت يا شابي كان قلبك يتألم ،ويتقطر عند رؤية الطبيعة ،وهي ثائرة والبحر وهو متلاطم الأمواج[3] .

ولهذا يرى بعض النقاد،أن أبا القاسم قد تجاوز حدود وطنه ليضحى شاعر عالميا فهو مثل" طاغور" ولامرتين" يقولون ويكتبون،لتستمع إليهم جميع أمم العالم على اختلاف ألسنتهم وأجناسهم وأديانهم[4] .

---

[1] – رجاء النقاش:الحب والثورة في شعر الشابي،دار المريخ للنشر،المملكة العربية السعودية، (د،س)، ص 51–52 .

[2] – أبو القاسم محمد كرو: دراسات عن الشابي، دار المغرب العربي، تونس، (د،س)، ص 42

[3] – أبو القاسم محمد كرو:الشابي حياته وشعره، ص 13–14 .

[4] – أبو القاسم محمد كرو: الشابي حياته وشعره، ص72 .

أولا: القدر والمرض

تعرض لقلب الإنسان أزمات نفسية ثائرة،يعصف فيها الألم والقنوط بكل حقائق الحياة، وتنتزع معها كل قواعد الإيمان والحق والجمال، فيشعر المرء كأنما أصبح غريبا في هاته الدنيا الغريبة، وكأنما الحياة فن من العبث المرعب الممل المستبد،الذي لا يجدر بالعطف ولا بالبقاء[1].

فقد كدره القدر أياما فكانت فاجعته الأولى،بموت حبيبته في أول شبابه قبل أن يبلغ العشرين من عمره، فأذكى موتها في نفسه الأسى والنقمة من حوادث الدهر المستبد.

ليكون الموت من أهم تجارب الاستبداد في حياته،حين نفذ إليه بحبيبته التي ماتت وهي برعم لم يتفتح بعد على الحياة،ماتت وهو يشتاق إلى التمتع بظلها فتفجرت في حناياه بواعث الموت،وانطوى قلبه أسى عليها،فخلف عنده الفراغ والظلام والاكتئاب وليست هذه تجربة سهلة في حياة الشابي، فهو مازال يافعا حساسا وقلبه مفعم بالطموحات لمستقبل كان يأمل أن يعيش ليراه.

بالأمس قد كانت كالسماء الباسمة
واليوم قد أمست كأعماق الكهوف الواجمة
أصبح النبع الجميل يسري في وادي الألم
متعثرا بين الصخور،يغور في تلك الظلم [2].

هذه الفتاة التي أحبها وعشقها، كانت محنة اضطر أهله أن يزوجه في سن مبكرة عله ينسى، أو ينشغل عن حبه، إلا أن هذه المحنة أذكتها رزية ثانية، قبل أن تستريح نفسه من العناء الأول بفقد أبيه[3].

لذا يصرخ الشابي صرخة ،من صرخات نفسه المملؤة بالأحزان والذكريات،وشظية من شظايا هذا القلب المحطم على صخور الحياة.

يا موت ! قد مزقت صدري وقصمت بالأزراء ظهري
ورميتني من حالق ، وسخرت مني أي سخر

---

[1] – إيليا الحاوي: أبو القاسم الشابي شاعر الحياة والموت، ص 117 .

[2] – أبو القاسم الشابي: ديوان أغاني الحياة،الدار التونسية للنشر،1920،ص82

[3] – يوسف عطا الطريفي: أبو القاسم الشابي حياته وشعره ، ص 12–13–14.

فلبثت مرضوض الفؤاد أجر أجنحتي بذعر ...
وقسوة إذ أبقيتني في الكون أذرع كل وعر
وفجعتني فيمن أحب، ومن إليه أبث سري [1].

وهذا بوح للنفس باستبداد الحياة،في أثناء مخاطبة الموت، فهو يجالد الحياة ليضمن لأسرته عيشا هادئا في حياة الكفاف[2].

إلا أن مرضى الشابي – مرض القلب – شكل أكبر استبداد، ومأساة في هذه الحياة

لم أجد في الحياة لحنا بديعا يتبنى سوى سكينة نفسي ..
أن في روضة الحياة لأشواكا بها مزقت زنابق نفسي ..
تتهاوى ما بين غصات قلبي بسكون بين أوجاع نفسي .. [3].

فهذه الحياة سكينة وزنابق وأوجاع ،وهي وعاء لأحزان الشاعر تتهاوى بين غصات قلبه وتسكن أوجاع نفسه، وهذه الأحزان على قلبه نلمسها في قصيدته " قلبي التائه"[4].

أنت يا قلبي قلب أنضجته الزفرات
أنت حقل مجدب قد هزأت منه الرعاة
أنت ليل معتم تندب فيه الباكيات
أنت كهف مظلم، تأوي إليه البائسات
أنت قبر، فيه من أيامي الأولى رفات
أنت عود مزقت أوتاره كف الحياة
أنت لحن ساخر يخبط في التيه الموات[5]

الشاعر يخاطب بهذه الأبيات قلب إنسان يجسده ليعطيه الدلالات التي يحس بها وهو بهذا يعكس أحاسيسه وواقعه المستبد[6].وتحت تأثير الحالة النفسية الجامعة،انفجرت من بين شفتيه صرخات،وتدفقت من بين أوتار قلبه أنغام كاسحة،وألحان ثورة مدمرة جارفة أنكر فيها

---

[1] – أبو القاسم الشابي : أغاني الحياة، ص140.
[2] – يوسف عطا الطريفي: أبو القاسم الشابي حياته وشعره، ص 15– 22 .
[3] - أبو القاسم الشابي:أغاني الحياة،ص73.
[4] – أبو القاسم الشابي :الديوان، تقديم وشرح راجي الأسمر، ص 59.
[5] – أبو القاسم الشابي:أغاني الحياة،ص135.
[6] – يوسف عطا الطريفي: أبو القاسم الشابي حياته وشعره ، ص 98– 99 .

وتتكر وألحد وتهجم على القدر المستبد،في قصيدته "إلى الله" التي شرع فيها بمخاطبة إله الوجود المسؤول عما يصيب الشاعر من مصائب القدر ودواهيه.

1– يا إله ! هذي جراح تشكو إليه الدواهي

2– هذه زفرة يصعدها الهم إلى مسمع الفضاء الساهي

3– هذه مهجة الشفاء تناجيك فهل أنت سامع يا إلهي [1].

إنه حديث الألم والعتاب،بل الشكوى والثورة، لأن جرح مصائب القدر يصيب صاحبه دون ذنب مشهود،لذا يصعد شكواه لخالق العالم،لأنه هو الذي أراد كل شيء بإرادته، وإن لم يقترف الأذى بيديه فإنه أنفذ من يقترفه عنه،قدرا قاهرا مستبدا ساديا لا يفرح إلا بالويل والشر، ليخيل إليه أن الله نفسه لا يتعطف ولا يستجيب،فيسأله بلا رجاء وقنوط ويقول " هل أنت سامع يا إلهي " ليتهم في عرض الشكوى الله متهم صريح إذ يباشر مخاطبته بالقول:

أنت أنزلتني إلى ظلمة الأرض وقد كنت في صباح زاه[2].

فهو يتهم الله بأنه أسقطه من عدن النور، إلى أرض الظلمة ويتوهم أنه لم يكن لديه ثمة جسد مظلم، بل كان من نور كله ومن شعاع جميل[3].

ولا تقتصر بلواه على نفسه في حيرتها ونشوتها، بل على أحداث القدر التي تعصف به كريح عاتية،تعبث به كل عبث،وهو ألعوبة بائسة على خضمها الهائج المتدافع

ثم خلقني وحيدا، فريدا بين داع من الرياح وناره

أنت أوقفتني على لجة الحزن وجرعتني مرارة " آه "

أنت أنشأتني غريبا بنفسي بين قومي في نشوتي وانتباهي

أنت عذبتني بدقة حسي وتعقبتني بكل الدواهي

بالأسى بالسقام بالهم بالوحشية باليأس بالشقا المتناهي[4].

إنها صور من الويلات والمصائب،تحدق به إلا أن السقام يظل أكثرها واقعية لأن الشاعر نارعه وعاش بين قبضته ردحا من عمره القصير،فكأنه عدو مقيم بجنبه لا يقوى

---

[1] – أبو القاسم الشابي:أغاني الحياة،ص145.

[2] – أبو القاسم الشابي: أغاني الحياة،ص146.

[3] – إيليا الحاوي: أبو القاسم الشابي شاعر الحياة والموت، ص 124– 125 .

[4] – أبو القاسم الشابي: المصدر نفسه،ص146.

على دفعه، يشعر به ولا يراه،يدب دبيبا غامضا منكرا مستبدا، لذا خطر الشاعر في المقطع الأخير بلحظة من الجنون،إذ يخاطب ضمير الوجود والأرواح والفضاء والأفاق والتراب والمياه أي عناصر الكون كلها،يسألها أن تدله على ذلك الإله الرحيم إنها الثورة الميتافيزيقية التي يواجه بها الله تمرد المخلوق على الخالق:

يا ضمير الوجود ! يا عالم الأر واح ! يأيها الفضاء الساهي !
يا خضم الحياة يزخر في الآ فاق في التراب في قرار المياه !
خبروني هل للورى من إله راحم – مثل زعمهم – أواه
يخلق الناس باسما ويواسيـ هم، ويرنو لهم بعطف إلهي
ويرى في وجودهم روحه السا مي وآيات فنه المتناهي
إنني لم أجده في هاته الدنـ يا، فهل خلف أفقها من إله ؟ ! [1].

ويبلغ تمرد إلى حد استعماله هذه التعابير " يا ضمير الوجود " " يا عالم الأرواح " يا أيها الفضاء الساهي!فهو يطلب إلها يخلق الناس ويرعاهم، ويؤاسيهم عن مصائبهم ويبث فيهم روحه وكماله،هكذا تنتهي القصيدة بثورة ويأس معا،يرفض فيها الشاعر الوجود وخالقه،ويستطلع وجودا وربا آخرين،يوافقان رؤيته ويحققان مثال الحكمة والعدالة بعيدا عن استبداد الحياة والقدر كما يحلم [2].

ليرد مقطع الاستغفار والعودة لأحضان الإيمان،يخاطب قلبه وفمه اللذين نطقا بالكفر والمنك، وكأنما يؤنبهما على ما أوقعاه به، ثم يستجدي الله المغفرة لأن اليأس أفقده صوابه فشظت لحظة من الثورة والعصيان في نفسه،وتخيم الطمأنينة في البيتين على قلبه فيعود قلبه معبدا للحب والنور ونايا للجمال والنور .

ما الذي قد أتيت يا قلبي الباكي ؟ ! وماذا قد قلته يا شفاهي
يا إلهي قد أنطق الهم قلبي بالذي كان .. فاغتفر يا إلهي
قدم اليأس والكآبة داست قلبي المتعب الغريب الواهي ..
فتشظى وتلك بعض شظاياه .. ، فسامح قنوطه المتناهي
فهو يا رب معبد الحق والإيمان والنور والنقاء الإلهي

---

[1] – أبو القاسم الشابي:أغاني الحياة،ص147.

[2] – إيليا الحاوي : أبو القاسم الشابي شاعر الحياة والموت، ص 128– 132 .

وهو ناي الجمال،والحب والأحلام. لكن قد حطمته الدواهي[1].

وهذا المقطع يحفل بالصور بخلاف سائر المقاطع لأن التجربة متهادنة قريرة أفسحت للفكر في التأمل وللخيال بالتصوير،فبدا اليأس وكأن له قدما يسعى بها وله نارا يتشظى فيها كما أن قلبه يغدو معبدا ونايا[2].

ثانيا: الموقف من تقاليد المجتمع

كان المجتمع التونسي في عصر الشابي مستبدا مفككا ضائعا يتفش فيه الجهل والظلام وتلتف حوله الآراء الاجتماعية الرجعية الكئيبة تلك التي كانت تسيطر عليه من كل ناحية[3].

والتي تدعي أن كل مجدد ثائر،عاق للدين عاص لله وكان يكفي الفئة الحاكمة من شيوخ الدين بتونس أو غيرها أن يدعوا المجتمع في المنابر أن تقاليده مسخت،وأن قدسياته امتهنت وأصنامه المعبودة حطمت، كان هذا يكفي حتى يثور المجتمع الجاهل المستبد الظليل،على الثائرون المجددين مما يؤدي بلا شك إلى ضياع جهودهم وثوراتهم التجديدية هباء.

وكان ثمة عامل آخر غير هذه الرجعية المستبدة إنها القوى الفرنسية الاستعمارية فقد كان من مصلحة الاستعمار،أن يظل الشعب مستبدا في فكره نائما مسترسلا في نومه لا يحرك ساكنا للانتفاضة على المستعمرين،وهم يمتصون ثورته ويستغلون بلاده ذلك أن الاستعمار الفرنسي بدوره مستبد،يعمل على نشر الفقر والجهل والضلال والمرض وغيرها من الأمور التي تعمل على استبداد المجتمع،وقتل روح الحياة فيه. ذلك أن الاستبداد يسلب الراحة الفكرية،فيضني الأجسام فوق ضناها بالشقاء فتمرض العقول ويختل الشعور على درجات متفاوتة في الناس[4].

هكذا إذن هو المجتمع التونسي في هذا الحين مجتمع تضافرت عليه كل قوى العدوان والشر والاستبداد،من رجعية متآمرة جاهلة في ذاتها،إلى قوى استعمارية متعسفة غاشمة إلى

---

[1] – أبو القاسم الشابي :أغاني الحياتص148.

[2] – إيليا الحاوي : أبو القاسم الشابي شاعر الحياة والموت، ص 133 .

[3] – رجاء النقاش: أبو القاسم الشابي شاعر الحب والثورة، دار المريخ للنشر، السعودية، (د، ط) 1988، ص 82 .

[4] – عبد الرحمن الكواكبي: طبائع الاستبداد ومصارع الاستعباد ، ص 108 .

مفكرين دينيين ليسوا من الفكر في شيء وإنما هم أموات يتنفسون ويتحركون موتى بعقولهم وتفكيرهم ومعلوماتهم أحياء بأجسامهم،وما أذل حياة فيها موت للعقل والقلب والروح إنها لحياة مستبدة ليس فيها من الإنسانية شيء، لذا كان من المستحيل أن يعيش الشابي بثورته وإيمانه مع هذه الأنظمة المستبدة وهذه الصورة من المبادئ الزائفة.

فليس من السهل على شاعر كالشابي منسوب الخيال دقيق الحس مرهف الشعور أن يرضى عن هذا المجتمع، لا يرضى بأصناف الظلم التي يعانيها والآلام التي يكابدها وأن يساير هذا النوع الحيواني غير الإنساني[1].

لذا كان شعره لمسة إنسانية لجوانب الحياة،وكانت قصائده إلى المجتمع المستبد ترانيم سماوية خالدة،ومبعث قوة خارقة في المجتمع،وكانت نور يهديه إلى الانبعاث القومي الإنساني الحي،من خلال تلك الصيحات الثورية الخالدة التي كان يتفجر بها شعر الشابي، صيحات موقظة صاخبة تبين بإخلاص نوع هذه الحياة التي يحيونها وما فيها من استبداد.

أين عزم الحياة لا شيء إلا الموت،والصمت،والأسى،والظلام ؟
عمر ميت، وقلب خواء ودم، لا تثيره الآلام
أي عيش هذا،وأي الحياة ؟ رب عيش أخف منه الحمام
كل شيء يعاطف العالم الحي، ويذكي حياته ويفيده
والذي لا يجاوب الكون بالإحساس عبء على الوجود وجوده
كل شيء يساير الزمن الماشي بعزم، حتى التراب ودوده
كل شيء إلاك حي عطوف يؤنس الكون شوقه ونشيده
فلماذا تعش في الكون يا صاح وما فيك من جني تستفيده
لست يا شيخ للحياة بأهل أنت داء يبيدها وتبيده
أنت قفر جهنمي لعين، مظلم قاحل، مريع جموده
لا ترف الحياة فيه فلا طير يغني، ولا سحاب يجوده[2].

---

[1] – طلعت أبو العزم: الرؤية الرومانسية للمصير الإنساني لدى الشاعر العربي الحديث، دار النهضة الهيئة المصرية للكتاب، د ط ، 1981، ص 50 .

[2] – أبو الفاسم الشابي:أغاني الحياة،ص250.

وهذه القصيدة تحمل خطوط عريضة،تشير إلى الأهداف التي يردها لمجتمعه وهي في عنفها وقسوتها أدل على نواحي الضعف والاستبداد التي كان يرزخ المجتمع تحتها ونواحي القوة التي يتطلع إليها، اندلعت من اصطدامه بالواقع الاجتماعي المتخلف وهذه الصرخات لم تكن موجهة إلى الاستعمار الذي يكبل مجتمعه ويستبده،ويعوقه عن الحياة بمقدار ما هي موجهة إلى هذه النزعة التي حبست أنفاس الشعب وقيدته فلم ينطلق وشدته إلى العصور القديمة البالية ومفاهيمه العتيقة،التي فقدت معناها في نفوس الشباب الواعي المتفهم لرسالته في الحياة .

فيزال من أبرز صفات المجتمعات الشرقية عبادة الماضي،عبادة عمياء ،دون تمييز أو تحقق من جدراتها بالحياة،والماضي في حقيقته تراث عزيز على كل شخصية إنسانية،ولكنه الإعزاز الذي يجب أن يتخذ نقطة انطلاق ووسيلة إلى التفوق والاجتياز،لا الوقوف عنده وعبادته عبادة يحجر الحياة المبدعة،وتجمد القوى الخالقة،وتجعل حياة الناس صورة من حياة المتاحف والقبور. وتلك ظاهرة بارزة في رسالة الشابي الاجتماعية، فهو لم يكن كافرا بالقديم العريق ولكنه كان كافرا في العقلية التي تريد إيقاف الناس عنده، فلا تسمح بتخطيه والتفوق عليه فتستبد بذلك منابع النبوغ والإبداع في الأمة،حتى يجسد حاضرها وماضيها لما فيه من صور الحياة البانية، وليس في الأرض أشقى من شاب يعيش على أمجاد تاريخه وحياته الحاضر خالية من كل مجد[1].

– والشقي الشقي في الأرض شعب يومه ميت وماضيه حي[(2)].

والشابي أخذ يدعوا إلى حياة جديدة ووعي جديد وفهم جديد لمشكلات المجتمع أعلن هذه الرسالة بكتابه الأول الخيال الشعري عند العرب بجرأة وحماسة نادرتين قال:" لقد أصبحنا نتطلب حياة قومية مشرقة ملؤها العزم والشباب ومن يتطلب الحياة فليعبد غده الذي في قلب الحياة أنا،أما من يعبد أمسه وينسى غده فهو من أبناء الموت وأنظار القبور الساخرة "[(3)]. بل لقد عبر عنها في شعره أيضا فقال :

والناس شخصان ذا يسعى به قدم من القنوت وذا يسعى به أمل

[(1)] – خليفة محمد التلسي: الشابي وجبران، ص 64 ، 65.

[(2)] – أبو القاسم الشابي:أغاني الحياة،ص253.

[(3)] – أبو القاسم الشابي: الخيال الشعري عند العرب، الدار التونسية للنشر، ط2، 1983، ص67.

هذا إلى الموت والأجداث ساخرة وذا إلى المجد والآمال تتصل[1].

وقد بين صورة هذا المجتمع المثالي الذي يرده في مجتمعه المستبد،لذا يرى الشابي في الطبيعة الخالدة أو الغاب، هناك يرى أن المجد والأخوة والصداقة والمحبة والحب والإخلاص والخير كلها نجدها في الطبيعة،وهذه ولا شك صور إنسانية يردها الشابي أن تتمثل في مجتمعه التونسي،ولكن أنى له ذلك فالشوط طويل والحرب سجال بين القوى النقدية الإنسانية المتجددة وبين التقاليد المتعفنة والرجعية المستبدة وتلك البيئة الخائفة الذليلة التي تأبى أن تترك تفكيرها الرجعي القدري وأن تساير ركب التقدم والتطور :

كلما قام في البلاد خطيب موقظ شعبه يرد صلاحه
أخمدوا صوته الإلهي بالعسف أما ترا صداحه ونواحه
أليسوا روحه قميص اضطهاد فاتك شائك يرد جماحه
هكذا المصلحون في كل صوب رشقات الردي إليهم متاحة
غير أناتنا وبتنا الرزايا وأستبيح الحمى وأي استباحة[2].

وقد دعا الشابي إلى القضاء على أوصاب المجتمع تلك ورزياه،وذلك بأن يؤمن كل إنسان بنفسه وروحه وبلاده وأن يعمل،على خلاصها من كل استبداد ذلك أن دعوته إلى الاستقلال الذاتي ونمو الشخصية الفردية،من أهم مراحل دعوته المجتمع إلى الإيمان بالنفس والروح والوطن والتقدم والتطور ،بعيدا عن الرجعية المستبدة والتقاليد المتعفنة فأشعار الشابي صدحت بدعوة صارخة حارب فيها الأوهام والخدع والمؤامرات الاستعمارية وراح يدعوا إلى نبذ هذا التفكير القدري المبني على الاستسلام الذي فرضته القوى الرجعية باسم الدين وما هو من الدين بشيء:

سكتم حماة الدين سكتة واجم ونمتم ملء الجفن والسيل داهم
سكتم وقد شمتم ظلا ما غصونه علائم كفر ثائر ومعالم
أفيقوا فليل النوم ولى شبابه ولاحت لك ألاء الصباح علائم[3].

---

[1] – أبو القاسم الشابي:أغاني الحياةص،ص41.

[2] – أبو القاسم الشابي: أغاني الحياة، ص 24 .

[3] – أبو القاسم الشابي: أغاني الحياة، ص 165 .

وهذه الصرخة واجه بها الشابي خصوما مستبدين متشديدين في غير الحق رافضين الحوار معهم منحرفين عن مناهج النقد الموضوعي في مناقشة أراءهم مستعملين سلاح الدس والتضليل واتهام كل من لم يكن من رهطهم بالإلحاد والمروق كما فعلوا مع الشابي عقب إلقائه بيانه الأدبي " الخيال الشعري عند العرب " على مسامعهم بقاعة الخلدونية سنة 1920 إذ اتهموه بنكران الماضي ومحاربة أمجاده وبالعقوق لأبائه وأجداده وبالسخرية من التراث المقدس .

لكن الشابي لم يكن ثائر إلا على السخافة المستحكمة والتقاليد الجامدة والمقاييس المتحجرة والعقول المنحطة ولذلك يصور هذا المجتمع المستبد قائلا:

إني أرى فأرى جموعا جمة لكنها تحيا بلا ألباب
فرحت بهم غول التعاسة والفنا ومطامع السلاب والغلاب
لعب تحركها المطامع واللهى وصغائر الأحقاد والأراب
وأرى نفوسا من دخان جامد ميت كأشماخ وراء ضباب
موتى نسوا شوق الحياة وعزمها وتحركوا كتحرك الأنصاب[1].

وهكذا كان مجتمعه، أو هكذا كان المجتمع العربي يعيش على أمجاده الماضية بفعل التخلف الذي تمثله طبقة تستثمر غفلة المجتمع وجهله، وبفعل الاستعمار الذي لا يساعده شيء على تمكين حياته وقواعده كما تساعده هذه الروح الانهزامية،التي تعيش في ظلام العصور [2].

ولقد كان الشابي مندفعا مع ثورته على مجتمعه،حتى لينكر عليه كل قوة ولا يراه خليق بالحياة لأنها غنية عنه فهو لا يفيدها بشيء ولا يسير معها ولا يذكي وجودها ولا يساهم في تقديم الركب الحضاري – ولذا ينطلق صارخا في تمرد عنيف:

أنت لا شيء في الوجود فغادره إلى الموت فهو عنك غني

---

[1] – أبو القاسم الشابي:أغاني الحياة ،ص174.

[2] – خليفة محمد التلسي: الشابي وجبران ، ص 66 .

ولكنه يعود مرة ثانية إلى مناداة هذا المجتمع،مؤمنا بقوته وفعاليتها وإمكانياته الرائعة التي لم يتسن لها الانطلاق من أسر الماضي لتكون خير أساس في تدعيم النهضة إنها قوة عبقرية ، ولكنها مكبلة بظلمات العصور : [1].

أنت في الكون قوة كبلتها ظلمات العصور من أمس أمسي
أنت في الكون قوة لم تمسها فكرة عبقرية ذات بأس[2].

قيود الماضي هي التي علمته عبادة الموت، والكفر بالحياة المتطورة والإشاحة عن النور الهادي والأشواق الطامحة، والعزم الباني الذي يهزأ بالصعاب ولا يبالي بالعقبات لقد جمدته في مفاهيمها البالية ولم تسمح لعينه بمعانقة النور، نور الحقيقة نور الحياة المتطورة لقد مات في نفسه كل شيء إلا أمسه البعيد، فلا عجب إذا هتف الشاعر به مرارا :

أنت دنيا بظلها أفق الماضي وليل الكائبة الأبدي
مات فيها الزمان والكون إلا أمسها الغابر القديم القصي[3].

هذه القصيدة وغيرها من قصائده الثائرة، تبين أهدافه وتكشف عنها فلقد كان ينشد في شعره المجتمع الذي تتكامل له شخصيته التي تتجلى في تقدمية تتجاوب مع الكون وتتفاعل مع الحياة وتضيف إلى التراث الإنساني انتصارات جديدة في مختلف الأفاق العلمية والفنية تقدمية تحقق رسالة الحياة ولا معنى لهذه الرسالة إذا لم تكن انطلاقة متمردة على الاستبداد تساهم في إغناء العالم وتطويره، والمجتمع الذي يكفر بهذه الحقائق مجتمع فاشل ميت غير جدير بالحياة فهو داء يجب أن تعمل على إبادته قبل أن يبدها .

أنت قفر جهنمي لعين مظلم قاحل مريع جموده
لا ترق الحياة فيه فلا طير يغني ولا سحاب يجوده [4].

هذه هي حياة مجتمعه – كما يراها – حياة خالية من كل صور الحضارة الإنسانية هذه الحياة تلقي في نفسه النقمة على الجمود، وصراعه مع مجتمعه ليس سوى صراع الحركة الخالقة المبدعة مع الركود الجامد الميت، وقد آمن أن طريق النهضة والتفوق هو

---

[1] – خليفة محمد التلسي: الشابي وجبران، ص 66 .
[2] – أبو القاسم الشابي:أغاني الحياة،ص151.
[3] – أبو القاسم الشابي: أغاني الحياة، ص 253 .
[4] – المصدر نفسه، ص253.

يقظة الحس، ولذا أخذ يشدد على هذه الظاهرة، حتى ليرى أثرها في تقدم المجتمعات أشد مفعولا من الحرية وأبرز صفات هذه اليقظة الحسية أن تمنح المجتمع ذاتية متفردة وشخصية متكاملة ومشاركة واعية متفهمة .

لقد كان يرى في هذه الصفة دعامة تحقيق الشخصية الوطنية التي تبدوا على أتمها في الاستقلال الفني والعلمي والتفوق الحضاري بصفة عامة[1].

والإيمان بالحياة المتجددة المتطورة،فهو يقدسها ويدعوا لها في شعره ولقد كان شعره صورة صادقة للحياة بأتم معانيها وصورة صادقة للحب حب الحياة بأسمى غاياتها.

فأنا إذن طفل الحياة المنتشي شوقا إلى الأضواء والألحان
وإذ التشاؤم بالحياة ورفضها ضرب من البهتان والهذيان [2].

لذا كان هتافه منطويا على تلك الأسئلة المؤلمة عن مظاهر الحياة الراقية .

أين يا شعب قلبك الخافق الحساس ؟ أين الطموح والأحلام ؟
أين يا شعب روحك الشاعر الفنان ؟ أين الخيال والإلهام ؟
أين يا شعب فنك الساحر الخلاق ؟ أين الرسوم والأنغام؟
إن يم الحياة يدوي حواليك، فأين المغامر المقدام [3].

والشابي يتساءل عن مظاهر الحياة الراقية فأين الرسوم التي تدل على ارتفاع في ذوق الأمة ؟ أين الأنغام التي تعبر عما يحتلج في نفسها ؟ أين الطموح الذي لا يستريح إلى الحاضر الموجود،ولكنه يتطلع إلى المستقبل المنشود ؟ أين المغامر المقتحم الذي يغزوا آفاق المعرفة بعزيمة لا تعرف الفتور،ويعش حياته كما يجب أن يعشها الإنسان الكامل ؟

وحين أعياه العثور على معاني هذه الأسئلة لم يتردد في أن يتهم شعبه بالجمود والتخلف،وعدم التجاوب مع أفراح الحياة وأحزانها[4].

عمر ميت وقلب خواء ودم لا تثيره الآلام
أي عيش هذا وأي حياة رب عيش أخف منه الحمام [1].

---

[1] – خليفة محمد التلسي: الشابي وجبران ، ص 68– 69.
[2] – أبو القاسم الشابي: أغاني الحياة،ص166.
[3] – أبو القاسم الشابي: أغاني الحياة،ص250 .
[4] – خليفة محمد التلسي: الشابي وجبران ، ص 69 .

إنها ثورة عنيفة ثورة من يريد أن ينقل مجتمعه في يوم وليلة من مجتمع تفشت فيه كل فنون الاستبداد إلى مجتمع شاعري فاضل، إنها ثورة عاطفية ينقصها التعقل والإتزان وتعوزها الإحاطة الشاملة بمعنى التطور وفهم حقائق الحياة الاجتماعية والسياسية، ورواسبها التي لا يمكن أن تبتر بضربة واحدة فلابد لها من الزمن .

لقد كان الشابي متقدما على عصره، فلم يفهم كلاهما الآخر لهذا يستمر تساؤله .

وقالت لي الأرض لما تساءلت يا أم هل تكرهين البشر ؟ !
أبارك في الناس أهل الطموح ومن يستلذ ركوب الخطر !
وألعن من لا يماشي الزمان ويقنع بالعيش عيش الحجر !
هو الكون حي يحب الحياة ويحتقر الميت المندثر !
فويل لمن تشقه الحيا ة من لعنة العدم المنتصر ![2].

وهو بهذه الفكرة وبهذه الدراسة الجديدة في شعره غداء روحيا للمجتمع التونسي إبان الاحتلال الغاشم وسياسية الإدماج والرجعية المتآمرة وسياسية الخمود والجمود والسكوت والموت وكل فنون الاستبداد يدعوا إلى حياة الكفاح في شعره، وإلى تقديس حرية الإنسان والدعوة إلى كسر القيود ذلك أن الحرية هي أعظم ما في الوجود فالعيش الكريم طريقه الثورة والجهاد ولا يتحقق ذلك إلا بالإرادة والطموح .

إذا الشعب يوما أراد الحياة فلابد أن يستجيب القدر
ولابد لليل أن ينجلي ولابد للقيد أن ينكسر[3].

فهو إذن يكافح التقاليد المتعفنة والرجعية والبيئة الخانقة ويحاول أن ينشر فيها روح الحياة والحرية والقوة والعدل والإنسانية .

ذلك أن الفعل الإنساني أكثر قربا من الإنسان وأشدها اعتناقا له واهتماما بقضاياه[4]. فقوى الماضي كانت تخنق أنفاس الأمة وتستبدها وتسعى إلى وأد كل حركة متحررة تعمل على تحقير الشخصية الإنسانية بالحجر عليها وعلى تفكيرها .

---

[1] – أبو القاسم الشابي:أغاني الحياة،ص250 .

[2] – أبو القاسم الشابي: أغاني الحياة،ص241.

[3] – أبو القاسم الشابي :أغاني الحياة،ص240.

[4] – مفيد قمحة: الاتجاه الإنساني في الشعر العربي المعاصر، دار الآفاق الجديدة، بيروت، ط1 ، 1981 م، ص 51 .

– وكأنما كان يرى – هذا الشاعر – أن لا سبيل إلى طرد المستعمر وقهر الغاصبين إلا بخلق الشخصية القومية العاملة الطامحة التي تسريح إلى نصيبها من الحياة، ولا تتعزى عما أصابها من بلاء بتخدير حواسها بالتعليلات المتخلفة[1].

وهكذا أصبح الفن يخدم الحياة وينطلق بها نحو سماء الخير والعطاء والإنسانية الرحبة " فالعمل الفني الذي يعبر عن الأوهام والأحلام والهمهمات والشطحات الصوفية أقل أهمية من العمل الفني الذي يحوي الحقائق المعمرة الباقية التي لا تنقضي بمرور الأجيال[2]. والشابي كذلك في قصيدته "فجاج الآلام" لم يترك جانب من جوانب الإنسانية إلا وقف عليه وبكى ضياعه أو اندثاره تحت أنقاض القسوة والظلم والاستبداد في الحياة فهو يستعرض فيها مشاكل اجتماعية يطفح بها المجتمع إذ ما اندثرت معاني الرحمة والألفة والتواد والرعاية الاجتماعية تحت أنقاض الظلم والقسوة واللامبلاة .

فهذه فتاة يتيمة تتخبط في دياجير الضياع،بعد أن خطفت يد المنون والديها وقسا الزمن وأهله عليها :

بين القبور فتاة جار الزمان عليها
فافتك منها بعنف كف الردى أبويها
تقول والليل ساج والقبر مصغ إليها
يا ليتني مت من قبل أن تسوء حياتي .. !
وينضب الدمع من لوعتي ومن حسراتي !
من لي بحفرة قبر تضمني وشكاتي[3].

وتلك أم ثكلى في صغيرها لم تجد من يخفف لهيب الكمد عن فؤادها أو يواسيها :

فخرت الأم حول الصبي تصرخ " ويلي "
فقلت والقلب دام والناس يبكون حولي
ما أسخف العيش تقضي عليه زلة نعل![1].

---

[1] – خليفة محمد التلسي: الشابي وجبران ، ص 69– 70 .

[2] – مصطفى عبد اللطيف السحرتي: الشعر المعاصر في صور النقد الحديث، مطبوعات نهامة، ط 2 ، 1404 هـ ، 1984 م ، ص 17 .

[3] – أبو القاسم الشابي: أغاني الحياة،ص104.

وهناك شيخ مسن افتقد القبول وحتى حق الرعاية الاجتماعية :

شيخ شآه دهر الأسى، وحيد شتيت
بين الخرائب يمسي على الطوى، ويبيت
في ظلمة الليل فاضت على الوجود حياته
وطرفه يرمق النجم ملؤه غبراته
وما حواليه إلا الخراب يشجي صماته[2].

فالمجتمع بحاجة ماسة إلى درجة من التكافل والرعاية فيما بين أفراده،وإن الجفاء الاجتماعي وقيود الآراء الاجتماعية الرجعية المستبدة والقوى الاستعمارية الفرنسية،وكل فنون الاستبداد هذه، هي الحقيقة الإنسانية : " فمسؤولية الرعاية موزعة في الجماعة وتتضمن الاهتمام بالآخرين في شيء من الرحمة حيث كل فرد راع ومسؤول عن رعيته وتتجلى الرعاية الاجتماعية في التراحم والتكافل الاجتماعي[3].لذا كانت هتفات الشابي هذه كارهة لحياة الاستبداد،متطلعة إلى السمو مترفعة عن الجمود والركود الذي لا يليق بأبناء الحياة المؤمنين بغدهم . فالشابي وعي رسالته وأحس في أعماقه أنه مسؤول عن تبصير مجتمعه بمعاني الحياة الحرة الكريمة،مسؤولية الشاعر الذي احترم ذاته وكيانه واستقل بهما عن الآخرين،فأحب لمجتمعه أن يحقق ذلك في شخصية متميزة تتجه إلى المساهمة الحضارية الخالقة[4].

---

[1] – أبو القاسم الشابي: أغاني الحياة،ص105.

[2] – المصدر نفسه،ص105.

[3] – حامد زهران: علم النفس الاجتماعي، عالم الكتب، القاهرة، ط - ، 1424 هـ ، 2003 م ، ص 289 .

[4] – خليفة محمد التلسي: الشابي وجبران ، ص 70–71 .

ثالثا: المرأة وتحريرها من عبودية الزمن وأدران الجسد

تعنـي المـرأة للشـاعر الرومنسـي الشـيء الكثير،ومعـروف أن الشـابي كـان شـاعرا رومنسيا، بأصـدق المعـاني وأعمقها،وقـد تمثلـت المـرأة عنـده مسـرحا لخيالـه،طريقا لعواطفـه عروسا لشعره ولهذا فإننا نجد الشابي يعبر عن المرأة من جانب إنساني،يحمل معنى القداسية ويربط بينها وبين أجمل ما في الطبيعة،ويغني لمعنى الحب ليجد في ذلك عالما سحريا،يزوده بصور من الحياة،ما يفوق الجمال الحسي،من خلال التوحيد بين المرأة والطبيعة، المثبوتة في معظم قصائد الشابي[1].

التي وقف فيها موقف الثائر المستنكر،لما تلقاه المرأة في الوطن العربي من استبداد وظلم وطغيان،فقد كان الشابي ساخطا على وضع المرأة،في المجتمع التونسي والعربي كما كان ثائر على وضع المرأة في الأدب العربي القديم،لأن الشاعر القديم في رأيه لم يكن يفهم من المرأة إلا أنها " جسد يشتهي ومتعة من متع العيش الدنيء " وهذا واضح في كتابه " الخيال الشعري عند العرب "[(2)]. فحسب اعتقاده أن الشاعر العربي القديم لم يعرف تلك النظرة الفنية،التي تعد المرأة قطعة فنية من فنون السماء،يتلمس منها الوحي والإلهام .

ولم يحاول الشاعر العربي،أن يحس بما وراء الجسد من روح جميلة، ساحرة تحمل بين جنبيها سعادة ومعنى الأمومة،وهما أقدس ما في الوجود[(3)].

وأبدع الشابي في حبه للمرأة واحترامه لها،عكس ما كان سائدا في الشعر العربي القديم،حينما اعتبروها مصدرا للهو والعبث،وجعلوا من المرأة لذة رخيصة فحسب حجبتها عن الحياة،وحرمت المجتمع أجمل مباهجه،وأعظم قواه الدافعة،وكان من نتيجة هذا البعد الذي فرض عليها، أن لازمتها نظرة سيئة،ولاحقتها لعنة أبدية،تتهمها في براءتها ونزاهتها وتجردها من كل عاطفة كريمة،فأصبحت مثالا للغدر والاستبداد،والدس الخسة والنذالة والكيد ولم يبق لنا في الشعر،إلا نموذج المرأة الهلوك، والمرأة العشيقة،وكتاب ألف ليلة وليلة أبلغ شاهد، على نظرة تلك العصور للمرأة .

---

(1) – يوسف عطا الطريفي: أبو القاسم الشابي حياته وشعره ، ص 119 .

(2) – المرجع نفسه ، ص 119 .

(3) – خليفة محمد التلسي: الشابي وجبران، الدار العربية للكتاب، ط1 ، عام 1978 ، ص 118 .

وقد ظلت مكانة المرأة على هذه المهانة،وانحطاط المنزلة،تحوطها العماية ويغلفها الجهل،حتى كانت بداية هذا القرن،حين استيقظ الشرق على صوت الخطر الزاحف المتمثل في الاستعمار الغربي،الذي دفع المصلحين إلى البحث عن أسباب الواقع الفاسد المرير، الذي يعشون فيه فكان من أبرز الأسباب وأظهرها مكانة المرأة .

ومن هنا تضافرت الجهود لتصحيح هذه المكانة،وردها إلى الوضع السليم ذلك الوضع الذي يقضي به منطق الكرامة والتقدم[1].

فتصدرت قضية المرأة،العربية والشرقية والمسلمة،لائحة القضايا المطروحة كنقد للوضع الراهن آنذاك،وكمجال من مجالات التحرر فنجد قضايا "تحرير المرأة، تعليم المرأة، حقوق المرأة" عرفت نقاشا واسعا اختلفت فيه وجهات النظر[2].

ومن الظواهر التي يقل الجدل فيها،أن واقع المرأة العربية في بداية هذا القرن،كان واقعا متشابها في جميع أقطار الشرق،وهذه حقيقة نمهد بها للحديث عن المرأة في تونس فقد كان حالها كحال شقيقاتها في جميع الأقطار العربية،فكانت بعيدة عن العلم بعيدة عن الحياة،وكان لابد للمصلحين أن يلتفتوا إلى هذه الناحية البارزة من حياة أمتهم،فتولت صرخاتهم وصيحاتهم داعية إلى النهوض بالمرأة،وقد تمثلت هذه الدعوة على أتمها في رائد بارز من رواد النهضة التونسية الحديثة هو " الطاهر الحداد " صاحب كتاب " امرأتنا في الشريعة والمجتمع[3].

وإن لقيت دعوته هذه استنكارا وسخطا،من المجتمع والشعراء والمفكرين أنذاك إلا أن هذه الدعوة لقيت الرضا والتأيد من الشابي،كما وقف الشابي إلى جانب " طاهر حداد " في دعوته إلى تحرير المرأة وتعليمها،فقد كان الشابي ساخطا من وضع المرأة في المجتمع التونسي والعربي،كما كان ثائر على وضع المرأة في الأدب العربي[4].

والشابي من خلال تصوراته هذه،يعش حبه للمرأة من خلال القيود المفروضة عليها،والتي تمنعها من حرية مشاركة الرجل،في الحياة الثقافية والاجتماعية،وفي قصائد حبه

---

[1] – خليفة محمد التلسي: الشابي وجبران ، ص 113 .

[2] – عباس بن يحيى: مسار الشعر العربي الحديث والمعاصر، دار الهدى للطباعة والنشر والتوزيع، 2004، ص71 .

[3] – يوسف عطا الطريفي: أبو القاسم الشابي حياته وشعره، ص 119 .

[4] – خليفة محمد التلسي: الشابي وجبران ، ص 115 .

يبني آراء تتماشى والمجتمع الشرقي المتطور،وقد أجمع معاصر الشابي على أنه كان صوتا دويا مناديا بتحرير المرأة وتعلمها،لذا لازمت صفة التقديس،المرأة في معظم شعره فهي كالوردة بين الأشواك،بريئة بين قوم غادرين مستبدين،يعث دور الشر في أنفسهم وتخب فيها المطامع الدنيئة :

ونجد في هذه الصورة في قصيدته " أيتها الحالمة بين العواصف " حيث يقول:

أنت كزهرة الجميلة في الغاب لكن بين شوك ودود
والرياحين تحسب الحسك الشرير والدود من صنوف الورود
فأفهمى الناس إنما الناس خلق مفسد في الوجود غير رشيد
ودعيهم يحيون في ظلمة الإثم وعيشي في طهرك المحمود[1].

ويتخذ الشاعر في قصيدته هذه،موقف المعلم المرشد،المحذر من انتشار الظلم والبغي والاستبداد،الذي يبذر الخوف في النفوس،والذعر في القلوب لذا يحذرها من المستبدين الذين يطمعون بها،ويغررونها لأن الناس خلق مفسد في الوجود،غير رشيد تحسبهم كلهم أبرياء ببراءتها وطهرها[2].

وقد استطاع الشابي في هذه القصيدة،أن يوظف المرأة لتكون رمزا لنفسه،وروحه الحالمة بالحق والخير والجمال،في ظل مجتمع تعصف به الأشواك وتتقاذفه ألوان الشر والفساد،فهي زهرة جميلة وريحانة فواحة،لم تجد من يتوافق معها وينصهر في بوتقتها لذلك هو يدعوها لأن تحذر الناس،وتسمو عن دناياهم بالابتعاد عنه.[3]من خلال قوله في القصيدة نفسها:

ودعيهم يحيون في ظلمة الإثم وعيشي في طهرك المحمود
كالملاك البريء كالوردة البيضاء كالموج في الخضم البعيد
كأغاني الطيور كالشفق الساحر كالكوكب البعيد السعيد[4].

---

(1) – أبو القاسم الشابي:أغاني الحياة، ص124.

(2) – إيليا الحاوي: أبو القاسم الشابي شاعر الحياة والموت، ص 59 .

(3) – أبو القاسم الشابي:الديوان، تقديم وشرحٍ راجي الأسمر،ص124 .

(4) – المصدر نفسه، ص124.

فالمرأة في رؤيته الشابي كائن مقدس،يبعث الحياة في القلوب ويضيء الكون سعادة وحبورا،ورمزا للطهر والصفاء والجمال،رؤية توحي إلى تلك النزعة الإنسانية،التي تضرب بجذورها في أعماق الشاعر،الرافضة لكل أنواع الظلم والاستبداد .

ولهذا نجد الشابي في ثورته على وضع المرأة،وخاصة في تونس،حاول أن يعبر عن ثورته العقلية وأن يستجيب لظمئه الروحي،بوضع المرأة في مثال رفيع يملآ قلبه ووجدانه ومشاعره الجمال الحسي[1]ولذ يعبر عن جمال المرأة من جانب إنساني،يبتعد عن الجمال الحسي.[2]

وذلك هو الجمال المنشود الذي كان يبحث عنه الشاعر،فليس تعلقه بها قائما على المحاسن الحسية،ولكنه كان منصرفا إلى ما في جوانحها من معاني الأمومة والعطف والمحبة تلك المعاني التي افتقدتها في واقع الحياة القاسية المستبدة[3].لذا يربط حديثه بعاطفة مقدسة وهي عاطفة الأمومة.

كل نسوك ولم يعودوا يذكرونك في الحياة
والدهر يدفن في ظلام الليل حتى الذكريات
إلا فؤادا ظل يخفق في الوجود إلى لقاك
ويود لو بذل الحياة إلى المنية وافتداك[4].

وكما يتضح أن للشابي مقطوعة قالها في التشوق إلى أمه،سمعها محمد الأخضر الشابي من الشاعر في بلدة المشروحة سنة 1932 إذ سئل الشاعر أما تشوقت إلى الوالدة ؟ فأجاب لقد قلت فيها هذه الأبيات،فحفضها محمد الأخضر،وضل يرددها دون أن تبرح ذاكرته قط[5].

---

(1) – يوسف عطا الطريفي: أبو القاسم الشابي حياته وشعره، ص 119 .

(2) – المرجع نفسه ، ص 119 .

(3) – يوسف عطا الطريفي:أبو القاسم الشابي حياته وشعره، ص 121 .

(4) – أبو القاسم الشابي:أغاني الحياة،ص185 .

(5) – علي الشابي: الجيد في أشعار أبي القاسم الشابي وأخباره ، ص 26–27 .

وهذه المقطوعة تعتد من جديد الشابي الذي لم ينشر – كما يذكر صاحب المقالة – فقد نشرت لأول مرة على صفحات مجلة الهداية التونسية،الصادرة في السنة الثانية بعد الألفين الميلادية وهي مكونة من ثلاثة أبيات يقول فيها[1].

رياح البعاد تهز فؤادي هزا عنيفا ودمعي يهمي
فقد رسم الشوق رسما جليا على وجهي العابس !تمدلهم
وفي زفراتي لقحة حب عميق يهد هده حصن أمي

ويستمر الشابي في رسم أحاسيسه وتصويره الفني،في صورة المرأة الملائكية التي تجمع أجمل ما في العالم،لأنها تمثل المعاني الإنسانية الراقية حيث يطلق الشابي هذا البيت في قصيدته " أيتها الحالمة بين العواصف " الذي يوجز موقفه من المرأة،بل واقعه منها.

أنت من ريشة الإله فلا تلقي بفن السما لجهل العبيد
أنت لم تخلقي ليقربك الناس ولكن لتعبدي من بعيد[2].

ومصدر هذه النظرة عند الشابي حرمان فرضته البيئة والتقاليد،التي حالت دون انطلاقها وتحررها،لذا كان الشابي صوت المصلح الاجتماعي مرددا هذه الكلمات العظيمة:

" إذا كنا نحتقر المرأة،ولا نعبأ بما هي فيه من هوان وسقوط،فإنما ذلك صورة من احتقارنا لأنفسنا ورضائنا بما نحن فيه من هوان وسقوط،وإذا كنا نحبها ونحترمها ونسعى لتكميل ذاتها،فليس ذلك إلا صورة من حبنا واحترامنا لأنفسنا،سعينا لتكميل ذاتنا "[3].

وهذا ما يثبت لدينا يقينا،أن هذا الشاعر كان قلبه مفعما بالحنان والإنسانية والحب الصادق، سواء لامرأة بعينها أو لجنس النساء عامة،أو لفظة الأنثى مكنيا بها حبيبته تونس تلك الأرض التي أحبها وأدمت قلبه حزنا على ما أصابها،من ويلات وأهمها وأشدها إيلام الاستعمار واستبداده،الذي انتشر فيها كالأخطبوط، لذا وجدنا أشعار الشابي الثائرة تحث الشعب صراحة على الثورة والتمرد،وتحثه على النضال والحرية حتى ترجع تونس للتونسيين[4].

---

[1] – علي الشابي: الجيد في أشعار أبي القاسم الشابي وأخباره، ص 29 .

[2] – أبو القاسم الشابي :أغاني الحياة، ص227.

[3] – خليفة محمد التلسي : الشابي وجبران، ص 119 .

[4] – أبو القاسم محمد كرو: الشابي حياته وشعره، منشورات دار المكتبة الحياة، ط 3 ، 1960 ، ص 112–119.

يقول الشابي في المرأة تونس :

أنا يا تونس الجميلة في لج الهوى قد سجت أي سباحة
شرعتي حبك العميق وإني قد تذوقت مرة وقراحة
لا أبالي وإن أريقت دمائي فدماء العشاق دوما مباحة[1].

إن عاطفة الحب تتدفق من بين حنايا الكلمات،وفجوات الحروف حب عميق وعشق ممكن للوطن والأرض،فهو يفضي بحبه وهواه وعشقه الكبير لبلده تونس، لا يبالي إن أريقت دمائه في سبيل هذا الحب لأن الشابي أحب المرأة تونس، حبا أراد به لو يستطيع أن يجعلها تحيا أبية،وأحبها ليمزق بحبه ستائر الأوهام،التي كانت تحجب عنه أنوار الحقيقة،وأراد لها حياة سعيدة عزيزة،التي افتقدتها في واقع الحياة القاسية المستبدة[2].

يقول الشابي في قصيدته " الجمال المنشود ":

صانكن الإله من ظلمة الروح ومن ظلمة الضمير المريد
إن ليل النفوس ليل مريع سرمدي الأسى شنيع الخلود
يرزخ القلب فيه بالألم المر ويشقى بعيشه المنكود
وربيع الشباب يذبله الدهر ويمضي بحسنه المعبود[3].
غير باق في الكون إلا جمال الروح غضا على الزمان الأبيد [4].

فالحب هو كمال الطبيعة والنفس،بل إنه زهرة النفس الدائمة التفتح،التي تنشق نسيم الروح ويتوضع منها عبير الجنة والحب،هوا لحرية والشابي يستدعي الحب أن يغمره ويفيض عليه أن يكبله،ويأسره ليدرك به سعادته وفنه[5].

كبلي يا سلاسل الحب أفكار ي وأحلام قلبي الضليل
كبلي بكل ما فيك من عطر وسحر مقدس مجهول
كبلني فإنما يصبح الفنان حرا في مثل هذه الكبول[6].

---

[1] – أبو القاسم الشابي : أغاني الحياة ،ص25.

[2] – أبو القاسم محمد كرو: من مقال سعاد أبو شقرا، ص 193 بتصرف .

[3] – أبو القاسم الشابي:أغاني الحياة،ص162.

[4] – إيليا الحاوي: أبو القاسم الشابي شاعر الحياة والموت، ص 38 . 39 .

[5] – المرجع نفسه ، ص 38 .

[6] – أبو القاسم الشابي :أغاني الحياة ،ص231.

فالشابي يستمدا صور حبه للمرأة من الطبيعة،لذا يستحيل ربط المرأة أو ذكرها بلذة فاجرة،فاقدة الحنان والرحمة،والحب هو الأحلام والأمالي تطيف به وتنتثر حوله، تتقطر حنانا وبكارة[1].

ليتني كنت زهرة تتثنى بين طيات شعرك المصقول
أو فراشة أحوم حولك مسحورا غريقا في نشوتي وذهولي
أو غصنا أحنو عليك بأوراقي حنو المدلة المتبول [2].

فالشابي يتمنى أن يكون زهرة،تزين شعر الحبيبة أو فراشة تحوم حوله،أو غصنا يظلها أو نسيما يعانقها،فكأنه أدم الأول المفتون بالجمال يسكب عليه عواطفه ولا يلامسه أدم السعيد في مهد العواطف،لا تغو و لا تحولك ولا تبلغ أقصى من مداها الذاتي لأنها مباشرة قوامها الصدق والعفوية،وأنى للعذرية أن تفصح عن نفسها بما دون هذه التنفسات والأماني[3].

ويمضي حب المرأة في علوائه، فيعانق حبيبته الموهمة معانقة الروح :

طهري يا شقيقة الروح ثغري بلهيب الحياة بل قبلني
إن نار الحياة والكوثر المنشود في ثغرك الشهي، الحزين
فهو كأس سحرية لرحيق الخلود قد صاغها إله الفنون[4].

فهذه القبلة ليست كسائر القبل،إنها أوج التجلي الروح أوفت من الطبيعة إلى ذروة سحرها،والنفس إلى غاية طهارتها فكأنه لقاء يباين أي لقاء آخر،لقاء الروح التائهة في فيافي الوجود منذ القدم،الفاقدة لكمالها تحت وطأة الزمن،جميعا عثرت على كمالها وعانقت نصفها الآخر الضائع،واتحدت به وذكره لنار الحياة رمز للروح،والكوثر رمزا للكمال المتحرر من عبودية الزمن ونكد السعادة،فالحب ليس حركة واقعية،قائمة على الوصف والرصف والمحكاة والتباري بالغلو،إنما هو صيرورة كلية تتآلف فيها النفس والطبيعة وعناصرها،لتبرأ من أدران

---

[1] – أبو القاسم الشابي : الديوان، تقديم وشرح راجي الأسمر ، ص 86 .
[2] – أبو القاسم الشابي : أغاني الحياة ،ص232.
[3] – إيليا الحاوي: أبو القاسم الشابي شاعر الحياة والموت، ص 40 .
[4] – أبو القاسم الشابي:أغاني الحياة ،ص242.

الجسد وعثرات الروح،وتعود إلى فردوسها الطاهر،الحب هو الحرية الروحية المستعادة من سجن العالم،هو الخير والجمال تفد في موكب سماوي بهي كرؤيا الأنبياء[1].

كما يصف الشابي جمال العذارى في شعرهن وأجفانهن وخدودهن وشفاههن ثم يتساءل :

ما الذي خلق سحرها الحالم السكران في ذلك القرار البعيد...
أنفوس جميلة كطيور الغاب تشدوا بساحر التغريد
أم ظلام كأنه قطع الليل وهول يشيب قلب الوليد
لست أدري فرب زهرة شدي قاتل رغم حسنه المشهود[2].

وذلك هو الجمال المنشود الذي كان يبحث عنه الشاعر فهو لا يهتم بالغدائر المسترسلة، والخدود الموردة والشفاه الباسمة،والعيون الحالمة والنهود المهتزة وكل صور الفتنة النسائية، إلا بمقدار ما تشف عن طهارة الروح، ونقاء القلب فليس تعلقه بها قائما على المحاسن الجسدية، ولم يكن مشغولا بما ينطوي عليه كيانها اللافح من حرارة،ولكنه كان منصرفا إلى ما في جوانحها من معاني الأمومة والعظمة والمحبة،تلك المعاني التي افتقدتها في واقع الحياة القاسية المستبدة،وهي وحدها قادرة على أن تردها إليه،وتعيد إلى نفسه طمأنينتها،وتسبغ عليها أمنها وسلامتها "[3].

فحبه لها حب روحي يسمو فوق نداء الغريزة،وهي عنده رمز للطهر والصفاء والجمال، والسمو عندما يقول عنها : [4].

يا بنة النور إنني أنا وحدي من رأى فيك روعة المعبود
فدعيني أعيش في ظلك العذب وفي قرب حسنك المشهود
عيشه للجمال والفن والإلهام والطهر والسنا والسجود[5].

---

[1] – إيليا الحاوي: أبو القاسم الشابي شاعر الحياة والموت ، ص 46–47 .

[2] – أبو القاسم الشابي:أغاني الحياة،ص161.

[3] – خليفة محمد التلسي: الشابي وجبران، ص 20 .

[4] – محمد رجاء حنفي عبد المتجلي:" الشابي حبه كان سببا في نضوج عبقريته، المجلة العربية، ربيع الثاني" 1408 / ديسمبر 1998 ، ص 58

[5] – أبو القاسم الشابي: أغاني الحياة،ص185.

ولعل دراستنا لواقع المرأة في شعره،لا تكتمل إلا بتحليل نموذج متكامل من قصائده وقد اخترنا قصيدة"صلوات في هيكل الحب"لهذه الغاية لأنها قصيدة خالدة،تبلغ حدا من الإبداع تطغي معه،على جميع ما قيل في تمجيد المرأة في الشعر العربي[1].

يقول الشابي في مذكراته " ها هي تلك المرأة الريحانة الجميلة التي أنبتها في سبيل أنامل الحياة .... " [2].

إذ تمتاز هذه المرأة بهذا التسامي والتصوف،ولا تعبأ إلا بالمعاني الروحية التي توحيها، المرأة ومبعث الحرارة التي تسري في هذه القصيدة،فشل الشاعر في تحقيق مثال المرأة التي يرده في واقع الحياة القاسية المستبدة للمرأة،فلا مناص له من أن يعش في خياله مع المرأة التي أقامها إلهة،يرتل في هيكلها المقدس تسابيحه وصلواته الحارة .

صلوات فيها الضراعة والبكاء والحسرة،على المجتمع الكافر بالقيم الرفيعة الغارق في استبداده للمرأة، العابد للرواسب البالية التي تنخر الشخصية الإنسانية،إنه ينشد المثال الذي لم يوفره له المجتمع.

---

[1] – خليفة محمد التلسي : الشابي وجبران ، ص 121 .

[2] – محمد فريد غازي: أبو القاسم الشابي من خلال يومياته، الدار التونسية للنشر (ط بدون)، 1983 ، ص 9 .

1- تحليل نموذج (صلوات في هيكل الحب):

أ- عرض أبيات القصيدة صلوات في هيكل الحب (أبو القاسم الشابي)

عذْبة ٌ أنتِ كالطّفولة ِ، كالأحلامِ كاللّحنِ، كالصباحِ الجديدِ
كالسَّماء الضَّحُوكِ كالليلة ِ القمراءِ كالورد، كابتسام الوليدِ
يا لها من وَداعة ٍ وجمالٍ وشبابٍ مُنَعَّم أمْلُودِ!
يا لها من طهارة ٍ، تبعثُ التقديـ ـسَ في مهجة الشَّقيِّ العنيدِ..!
يالها رقَّة ً تكادُ يَرفُّ الوَرْ دُ منها في الصخْرة ِ الجُلْمُودِ!
أيُّ شيء تُراكِ؟ هلى أنتِ "فينيسُ " تَهادتْ بين الورى مِنْ جديدِ
لتُعيدَ الشَّبابَ والفرحَ المعسولَ للْعالم التعيسِ العميدِ!
أم ملاكُ الفردوس جاء إلى الأر ضِ ليُحيي روحَ السَّلامِ العهيدِ!
أنتِ..، ما أنتِ؟ أنتِ رسمٌ جميلٌ عبقريٌّ من فنِّ هذا الوجودِ
فيكِ ما فيه من غموضٍ وعُمقٍ وجمالٍ مُقَدَّسٍ معبودِ
أنتِ.. ما أنتِ؟ أنتِ فَجْرٌ من السّحرِ تجلّى لقلبيَ المعمودِ
فأراه الحياة َ في مونِق الحسن وجلّى له خفايا الخلودِ
أنتِ روحُ الرَّبيعِ، تختالُ فـ الدنيا فتهتزُّ رائعاتُ الورودِ
وتهبُّ الحياة سكرى من العِطْر، ـر، ويدْوي الوجودُ بالتَّغْريدِ
كلما أبْصَرَتْكِ عينايَ تمشين بخطوٍ موقَّعٍ كالنشيدِ
خَفَقَ القلبُ للحياة ، ورفّ الزّهـ رُ في حقل عمريَ المجرودِ
وأنتشتْ روحي الكئيبة ُ بالحبِّ وغنتْ كالبلبل الغرِّيدِ
أنتِ تُحيينَ في فؤادي ما قد ماتَ في أمسي السعيدِ الفقيدِ
وَتُشِيدينَ في خرائبِ روحي ما تلاشى في عهديَ المجدودِ
من طموحٍ إلى الجمالِ إلى الفنِّ، إلى ذلك الفضاءِ البعيدِ
وتَبُثِّين رقّة َ الشوق، والأحلامِ والشّدوِ، والهوى ، في نشيدي
بعد أن عانقتُ كآبة ُ أيّامي فؤادي، وألجمتْ تغريدي
أنت أنشودة ُ الأناشيد، غناكِ إله الغناءِ، ربُّ القصيدِ

فيكِ شبّ الشَّبابُ، وشَّحهُ السِّحْرُ وشدوُ الهوى ، وَعِطْرُ الورودِ
وتراءى الجمالُ، يَرْقُصَ رقصاً قُدُسيًّا، على أغاني الوجودِ
وتهادتْ في لأُفْقِ روحِكِ أوْزانُ الأغَاني، وَرِقّة ُ النّغريدِ
فَتَمايلتِ في الوجود، كلحنٍ عبقريِّ الخيالِ حلوِ النشيدِ:
خطواتٌ، سكرانة ُ بالأناشيد، وصوتٌ، كرجْع ناي بعيدِ
وَقوامٌ، يَكَادُ يَنْطُقُ بالألحان في كلِّ وقفة ٍ وقعودِ
كلُّ شيءٍ موقَعٌ فيكِ، حتّى لَفْتَة ُ الجيد، واهتزازُ النهودِ
أنتِ..، أنتِ الحياة ُ، في قدْسها السامى ، وفي سحرها الشجيِّ الفريدِ
أنتِ..، أنتِ الحياة ُ، في رقَّة ِ الفجر في رونق الرَّبيعِ الوليدِ
أنتِ..، أنتِ الحياة ً كلَّ أوانٍ في رُواءِ من الشباب جديدِ
أنتِ..، أنتِ الحياة ُ فيكِ وفي عينَيْـ وفي عيْنَيْكِ آياتُ سحرها الممدُودِ
أنتِ دنيا من الأناشيد والأحْلام والسِّحْرِ والخيال المديدِ
أنتِ فوقَ الخيال، والشِّعرِ، والفنِّ وفوْقَ النُّهَى وفوقَ الحُدودِ
أنتِ قُدْسي، ومَعبدي، وصباحي، وربيعي، ونَشْوَتِي، وَخُلودي
يا ابنة َ النُّور، إنّني أنا وَحْدي من رأى فيكِ رَوْعَة َ المَعْبُودِ
فدَعيني أعيشُ في ظِلّك العذْبِ وفي قرْب حُسْنك المشهودِ
عيشة ً للجمال والفنّ والإلهام والطُّهرْ، والسّنَى ، والسّجودِ
عيشة َ النَّاسِكِ البُتولِ يُنَاجي الرّ بَّ في نشوَة ِ الذُّهول الشديدِ
وامنَحيني السّلامَ والفرحَ الرّو حيَّ يا ضَوْءَ فجْريَ المنشودِ
وارحَميني، فقدْ تهدَّمتُ في كو نٍ من اليأس والظلام مَشيدِ
أَنقذِيني من الأَسى ، فلقد أَمْسيـ أَمْسَيتُ لا أستطيعُ حملَ وجودي
في شِعَابِ الزَّمان والموت أمشي تحت عبءِ الحياة جَمَّ القيودِ
وأماشي الورَى ونفسيَ كالقبرِ، ـرِ، وقلبي كالعالم المهدودِ
ظُلْمَة ٌ، ما لها ختامٌ، وهولٌ شائعٌ في شكونا الممدودِ
وإذا ما اسْتخفّني عَبَثُ النَّاس تبسَّمتُ في أسَى ً وجُمُودِ

بسمة ً مُرَّة ً، كأنِّيَ أستلُّ من الشَّوْك ذابلاتِ الورودِ
وانْفخي في مَشَاعِري مَرَحَ الدُّنيا وشُدِّي مِنْ عزميَ المجهودِ
وابعثي في دمي الحَرارَة ، عَلَّي أتغنَّى مع المنى مِنْ جَديدِ
وأبثُّ الوُجودَ أنْغامَ قلبٍ بُلْبُليٍّ، مُكَبَّلٍ بالحديدِ
فالصباحُ الجميلُ يُنعشُ بالدِّفءْ حياة َ المحطَّمِ المكدودِ
أَنقذيني، فقد سئمتُ ظلامي ! أَنقذيني، فقد مللتُ ركودي
آهِ يا زَهرتي الجميلة ُ لو تَدْرِين ما جَدَّ في فؤادي الوَحِيدِ
في فؤادي الغريبِ تُخْلَقُ أكوانٌ من السحر ذات حسن فريد
وشموسٌ وضَّاءة ٌ ونجومٌ تَنْثُرُ النُّورَ في فَضَاءٍ مديدِ
وربيعٌ كأنّه حُلُمُ الشّاعرِ في سَكرة الشّباب السعيدِ
ورياضٌ لا تعرف الحَلَك الدَّاجي ولا ثورة َ الخَريفِ العتيدِ
وَطُيورٌ سِحْرِيَّة ٌ تتناغَى بأناشيدَ حلوة ِ التغريدِ
وقصورٌ كأَنَّها الشَّفَقُ المخضُوبُ أو طلعة ُ الصباحِ الوليدِ
وغيومٌ رقيقة تَتَادَى كأَباديدَ من نُثَارِ الورودِ
وحياة ٌ شعريَّة ٌ هي عندي صورة ٌ من حياة ِ أهلِ الخلودِ
كلُّ هذا يشيدهُ سحرُ عينيكِ وإلهامُ حسْنكِ المعبودِ
وحرامٌ عليكِ أن تَهْدمي ما شَادهُ الحُسْنُ في الفؤاد العميدِ
وحرامٌ عليكِ أن تسْحَقي آمـ ـالَ نفسٍ تصْبو لعيشٍ رغيدِ
منكِ ترجو سَعَادَة ً لم تجدْهَا في حياة ِ الوَرَى وسحرِ الوجودِ
فالإلهُ العظيمُ لا يَرْحَمُ العَبْدَ إذا كانَ في جَلالِ السّجودِ[1].

ب- قراءة في مضمون القصيدة:

[1] – أبوا القاسم الشابي: أغاني الحياة، ص 183.

هذه القصيدة وجدانية من الشعر الغنائي،تتجلى مزيجا من مناجاة الحب واستلهام الطبيعة فتقترب بذلك من الإفضاء الرومنسي، أما مدارها فمراوحة بين الواقع والخيال لأنها ذات نزوع تجردي،فيها سعي دؤوب إلى التسامي عن الكون المادي،نحو المثل المطلق[1].

ويستهل القصيدة متغزلا مشبها، فيقرن عذوبة الحبيبة بالطفولة والأحلام واللحن والصباح والسماء والليلة القمراء والورود وابتسام الطفل،ويتأوه من ثمة لوداعة جمالها الطري اللين كالأملود، ولطهارتها التي تحي الإيمان في نفس الشقي اليتم على الحادة ويتساءل بحيرة عن تلك المرأة العجيبة فيتوهم حينا، أنها " فينوس " ربة الجمال تعود من قلب الأسطورة لتقيم في الناس من جديد،وتنقذ العالم من تعاسته وتترادى له، حينا آخر كملاك انحدر من فردوسه،لينشر الهناء والسلام في الوجود، ويحسبها إثر ذلك، رسما بلغت به الحياة غاية إبداعها،ويظنها كذلك فجرا من السحر كشف له أسرار الوجود،بل إنها روح الربيع، تبعث الورد والعطر وتثير التغريد،ومن هذه الأجواء الأثيرة يهبط إلى ملامسته الواقع ملامسة خفرة، فيصف مشيتها الموقعة التي تحي أمله الميت وتثبت النشوة في نفسه، فترنم بأنشودة الفرح،بل إنها لتبعث الأمس وتجدد أطلاله الزائلة،وتكسرها بالجمال والفن وغلالة الحلم التي طوتها الأحزان والكآبة،ويرتد من حيث جديد إلى الإشادة والترنم،فيجعلها كالمرأة التي غناها الله في نشيد الأناشيد يجمع لها شتى محاسن الطبيعة.ومن ثم يخاطبها في المقطع الثاني طالبا القيام في ظل حسنها متعبدا للجمال والفن ومتنسكا لينال سلام الروح وفرحها،فقد هدمته الحياة باليأس والأسى والعبودية حتى أطبقت على نفسه ظلمة القبر ،وهو حي يجاري الناس ولا يفرح بأفراحهم،فهي وحدها تعيد إليه المرح والحرارة والشعر .أما في الأخير يمثل وقع جمالها في نفسه بالرؤيا،حيث خلقت أكوان فيها شموس ونجوم وربيع ورياض، وطيور وقصور وغلالة من الغيوم، وينهي القصيدة بالترجي أن يستجيب لدعائه وتعبده في محراب حبها[2].

ج- طرح أفكار القصيدة:

1-5 - وصف رقتها وعذوبتها .

---

[1] - عبد السلام المسدي: قراءة مع الشابي والمتنبي والجاحظ، دار سعاد الصباح للطباعة والنشر، القاهرة،ط4، 1993، ص 21 .

[2] - إيليا الحاوي : أبو القاسم الشابي، شاعر الحياة والموت ، ص 68-69 .

6–10 – التساؤل عن سر وجودها .

11–21 – وصف وقعها في نفسه .

23–30 – العودة لوصفها .

31–38 – العودة لذكر ماهيتها .

38–54 – التعبد والتضرع والبوح بالأسى .

55–64 – العودة لوصف وقعها في نفسه .

65–68 – العودة إلى التضرع والتبتل[1].

[1] – إيليا الحاوي: أبو القاسم الشابي شاعر الحياة والموت، ص 69– 70 .

د- شرح وتحليل القصيدة:

- وصف رقتها وعذوبتها : (1-5):

انبنـى هـذا المقطـع علـى خطـاب يجـري مجـرى المناجاة،لأنـه غيـر ذي موضـوع تبليغي،إذ يعتمد الوصف المطلق فكان خطابيا وجدانيا ذا مهجة غنائية،فأما المتوجه إليه بالخطاب فهو ضمير المخاطبة (أنت) [1].

كما يقرن الشابي في هذه الأبيات،عذوبتها بالطفولة لينمي إليها صفة البراءة التي لا ينكدها هم العيش الموطوء بغصة الحياة والموت،وحتمية الواقع المستبد وقيوده، لأن الحلم هو تحرر من قيود الواقع وبؤسه، وابتناء لعالم آخر على أنقاضه توفى به النفس إلى أشواقها.

ويمثلها من ثمة باللحن في عذويته ورقته،واللحن هو نغم الروح وهو الفرح والطرب،تبهج به النفس كما أن السماء الضحوك والليلة القمراء، والورود وابتسام الوليد هي من التعابير الإيحائية،التي تطفر للمرأة كل جمال في الوجود أو لعله يقم من قربها في مثل السماء الصافية والليلة الصاحية والورود والابتسام،ثم ينزع الشاعر إلى التعجب والدهشة من وداعتها وجمالها وشبابها اللين الخفر:

يا لها من وداعة وجمال وشباب منعم أملود! [2]

كما يعجب من طهارتها التي تبعث يقين الإيمان في ضمير الملحد،فهذه الطهارة تعيد ثقته بالحياة،ومن هذا اليقين النفسي يتحول الشاعر إلى الافتراض زاعما أن أحشاء الصخر تتفتت لها وتخصب،وتنبت الورد وكأنه تعبير عن رقتها وحنانها بل إنها تبدع وردة الإيمان في قلب الشقي المتحجر بالشر والقسوة، وهكذا تغنى الشاعر بعذوبة الجمال في المرأة وطهارتها، معبرا عن المرأة الملاك التي لا جسد لها،والتي سقطت من إهابها أفعى الشهوة والفحش[3].

---

[1] - عبد السلام المسدي: قراءة مع الشابي والمتنبي والجاحظ، ص 22 .

[2] - أبو القاسم الشابي:أغاني الحياة،ص184.

[3] - إيليا الحاوي: أبو القاسم الشابي شاعر الحياة والموت، ص 72- 73 .

– (6– 10): التساؤل عن سر وجودها:

تمثل هذه اللوحة على صعيد البنية دائرة استفهامية،وعلى مسار الحركة تحولا من أسلوب الإثبات إلى صبغة التساؤل،والظاهرتان كلتاهما وقعتان – كما تبينا – بين مفرقين يؤشرهما ضمير المخاطبة.

إذ يدور على تساؤل يبتغي كنه الحقيقة الوجودية،لهذا الحبيب المخاطب، وعلى هذا المعتمد جاءت الدائرة الاستفهامية احتمالا بين طرفين: إلهة الجمال في الميتولوجيا اللاتينية،وملاك السلام في عقيدة الكتب السماوية وعلى أي الصور جاءت فالمبتغى واحد: إعادة الكمال المثالي بتفجير المعجزات،في قلب الهرم شبابا والشقاوة سعادة وحبورا[1].

وهذه الطهارة العذبة،تدفع بالشاعر إلى التساؤل عن سر تلك المرأة فيتوهم أنها فينوس ربة الحب والجمال وقد بعثت من جديد لتعبيد الشباب إلى العالم الهرم،وتبث به الفرح بعد أن تردى تحت أكفان الحزن،فهي منقذة العالم من هلاكه ومن قدر الشقاء الملازم له،وليس هذا التساؤل من باب الحماس،بل إن له جذور إنسانية عميقة الإيمان يرى الشاعر بأن العالم مفتقر إلى الجمال والطهارة،وليس له من منقذ سواها لأن الوجود بدا له هرما لعظم ما عانى من القبح والشقاء،كما تبدوا له الحياة فاشلة بائسة يتعذر العيش فيها،لهذا يتمنى لو ترجع إلهة الجمال والنقاء،لتجعل العيش ممكنا لأن الشابي يرى أن الحياة وقعت في قبضة الواقع البليد من دونها،وبعد أن كانت الحبيبة من عالم السماء انحدرت إلى الوجود لتختصر بها آيته في رسم عميق،غامض جميل كالعالم .

فيك ما فيه من غموض وعمق وجمال مقدس معبود[2].

---

[1] – عبد السلام المسدي: قراءة مع الشابي والمتنبي والجاحظ ، ص 28– 29 .

[2] – أبو القاسم الشابي : أغاني الحياة،ص203.

فالمرأة والحياة كلاهما جميل وغامض لا تبلغ إلى نهاية مطافك فيه[1].

- (11-21) وصف وقعها في نفسه:

أما مضمون هذا الفصل،فهو صميم المناجاة المباشرة المثبتة[2].لتمضي القصيدة في سياقها حاملة معنى الإشراق والتجلي،كأن الحب كشف له صباح عمر جديد وحياة متعاقبة فرحة بذاتها،جميلة لا قبح على أدميتها فالحب طهر العالم من شره،وخلقه وادعا هانئا مرهف الحس،فيكشف بذلك الحس أسرار الخلود فكأن سعادة الخلود والجنة مماثلة لسعادة الحب،فالحب هو الخلود ولقد جعل له الشابي عرشا وتاجا وصولجانا على مملكة العالم[3].

13- أنت روح الربيع تختال في الدنيا فتهتز رائعات الورود
14- وتهب الحياة سكرى من العطر ويدوي الوجود بالتغريد
15- كلما أبصرتك عيناي تمشن يخطو موقع كالنشيد
16- خفق القلب للحياة ورف الزهر في حقل عمري المجرود
17- وانتشت روحي الكئيبة بالحب وغنت كالبلبل الغريد[4].

هذا هو مشهد " الطبيعة " في ملحمة الغناء الوجداني،والسر أن مداره خفي الذكر : نقرأ الربيع والورود والزهر والبلابل،فلا يرد على سمعك إلا ما يبرز الطبيعة دون تصريح بها وهذه الطاقة من التضمين الدلالي تعانقت عناصر مختلفة،حصل بينها تطابق وإسقاط وتلك العناصر هي " الأنا " و " الأنت " فأما الأول فيتناظر والطبيعة وأما الثاني فصورته الربيع،ثم يحل الضمير المخاطب،من الأنا المتكلم حلول الربيع من الطبيعة فيرتسم سوار رباعي يدور على نفسه فيحول عناصره إلى زوايا متناظرة : فيها الشاعر يدعو الحبيب ويذوب في الطبيعة، وفيها الربيع يحيي الطبيعة ويؤاخي الحبيب ويبقي النداء ممتدا كالرجع للصدى : أن يحل الحبيب في روح الشاعر حلول الربيع،في جسم الطبيعة[5].

---

(1) - إيليا الحاوي: أبو القاسم الشابي شاعر الحياة والموت،ص 74 .

(2) - عبد السلام المسدي: قراءة مع الشابي والمتنبي والجاحظ ، ص 31 .

(3) - إيليا الحاوي، أبو القاسم الشابي، شاعر الحياة والموت، ص 77 .

(4) - أبو القاسم الشابي :أغاني الحياة،ص184.

(5) - عبد السلام المسدي: قراءة مع الشابي والمتنبي والجاحظ ، ص 32 .

فبعد أن كانت حبيبته إلهة لا جسد لها وليست من دنيا البشر،بات يبصرها حيث ارتد إلى ذاته وأناط بحبيبته المطلقة تلك شيئا مما يكون للنساء قدمين تسعى بهما لها خطو موقع على نشيد من ذاتها،إنه الدلال أو التثني أو ما شئت لكنه هو السحر بالنسبة للشاعر بل إنه بعث للحياة وشهوة البقاء في نفسه مفعمة بالقنوط وحس الهرم،حبها هو الشباب والربيع والضياء ثم تتعمق الصورة ويتكثف الخيال .

19– وتشدين في خرائب روحي ما تلاشى في عهدي المحدود [1].

هذه فلذة صلاة وسجود وتقوى،ليست تضرعا ولا شكوى،بل إنه اعتراف وبوح تعقل والخيال شف وصفا وخرائب الروح هي من الشعر،نأنس بها لأنها من عالمنا وواقعنا والشاعر لم يعد يهذوا يشفر،بل بدت عليه ملامح الإنسان الذي هو شقيقنا في معاناة البؤس والذي يرجوا الخلاص.

وتتسلسل في الأبيات اللاحقة موجة الكآبة،بما هو أعمق من الألم في نوع من الاستسلام وإعلان الهزيمة[2].

20– من طموح إلى الجمال إلى الفنوالشدو، والهوى، في نشيدي

21– بعد أن عانقت كآبة أيامي فؤادي وألجمت تغريدي[3].

فقد عثر الشاعر من جديد على إنسانيته،وإن كانت مهزومة وعاد الشعر إلى سيرة الفرح والألم المماثلين لأفراحنا وآلامنا[4].

– العودة لوصفها (23– 30):

تنقلنا هذه الأبيات من الطبيعة والحب إلى مشهد " الفن " الذي يصور انصهار الشاعرية المبدعة،في رمز العاطفة الوجدانية ولهذا الانصهار مراتب وتجليات،تدركها أعضاء الحس فترى العين في هذا الرمز الملهم الموحي،جمالا مطلقا يتراوح بين السكون الساحر وحركة الرقص الأخاذة، وتسمع الأذن أوزان الغناء ووقائع التغريد ثم تستنشق النفس عطر

---

[1] – أبو القاسم الشابي:أغاني الحياة،ص184.

[2] – إيليا الحاوي:أبو القاسم الشابي شاعر الحياة والموت، ص 77 – 78 .

[3] – أبو القاسم الشابي :أغاني الحياة،ص184.

[4] – المرجع نفسه، ص 77– 78 .

الورود،فيغدو الحبيب مجمع الأحاسيس،يستسقي منه المحب معين ما يلهمه في كل عوالمه الوجدانية[1].

إلا أن التعقل وجرح الأسى الصامت،يكفان فجأة ويثب الشاعر من جديد إلى الإطلاق ولإغراق بصنع اللفظ :

23– أنت أنشودة الأناشيد غناك إله الغناء،رب القصيد[2].

فالإله والرب هما لفظتان تعاظم معناهما،تصعق القارئ صعقا وتذهله وتدهشه ثم يتراءى له جمالها يرقص رقصا .

25– وتراءى الجمال يرقص رقصا قدسيا على أغاني الوجود

26– وتهادت في أفق روحك أوزان الأغاني ورقة التغريد

27– فتمايلت في الوجود كلحن عبقري الخيال حلو النشيد[3].

على أغاني الوجود حيث تهادت في أفق روحها أوزان الأغاني،ورقة التغريد حيث لامس الشاعر روح الفرح والطرب،وسموا على ذلك الأبيات اللاحقة .

28– خطوات سكرانة بالأناشيد وصوت كوجع ناي بعيد

29– وقوام يكاد ينطق بالألحان في كل وقفة وقعود

30– كل شيء موقع فيك حتى لفتة الجيد واهتزاز النهود[4].

إذ ينقشع عنها فراغ التجريد والأفكار، فتشاهد خطوها السكران ينشد نفسها وصوتها الشبيه برجع ناي بعيد،والصوت الماثل لرجع الناي لا يضمر خيالا بعيدا بل صدقا في الرؤيا والمعاناة،وهو من أعذب الشعر لأنه اكتشف أن للجمال نغم يزنه ويوازنه وهو نغم لا يسمع بل يتغلغل في ثنايا الجسد،كأنه جزء منه مضمر فيه ذلك أن روحانية الشاعر عافت التقليد والمبارة لأن الألم طهره ولم يدع له ما يتفرع به إلى اللهو، فهو لا يأخذ الأشياء ببصره بل يلامسها ملامستة غامضة بروحه .

29– وقوام يكاد ينطق بالألحان في كل وقفة وقعود

---

[1] – عبد السلام المسدي: قراءة مع الشابي والمتنبي والجاحظ ، ص 35 .

[2] – أبو القاسم الشابي:أغاني الحياة،ص184.

[3] – المصدر نفسه،ص184.

[4] – المصدر نفسه،ص184.

30– كل شيء موقع فيك حتى لفتتة الجيد واهتزاز النهود[1].

وذكره للقوام والجيد، والنهد لم يوقعه بكثافة الوصف القديم أو ماديته بل إنه بث فيها قبسا أضاءها وكان الظلام يكتنفها ويقم قلبها منذ القدم[2].

– العودة لذكر ماهيتها (31–37) : هكذا نصل إلى المشهد الرابع من مشاهد لوحة " المناجاة " .

31– أنت ... أنت الحياة في قدسها السامي وفي سحرها الشجي الفريد

32– أنت ... أنت الحياة في رقة الفجر في رونق الربيع الوليد

33– أنت ... أنت الحياة كل أوان في رواء من الشباب جديد

34– أنت ... أنت الحياة فيك وفي عينك آيات بسحرها الممدود

35– أنت دنيا من الأناشيد والأحلام والسحر والخيال المديد

36– أنت فوق الخيال والشعر والفن وفوق النهى وفوق الحدود

38– أنت قدسي ومعبدي وصباحي وربيعي ونشوتي وخلودي[3].

ذلك هو مشهد القداسية الإلهية،وهو حصيلة تزاوج المشاهد الثلاثة السابقة من طبيعة وحب وفن،قائما على التعالي والسمو نحو اللا متناهي، فيه ينشد المطلق وبه يستعظم الجلل، بعد أن تحكم اللفظ الملهم المولد في مسيرة النفس الشعري على مدى الأبيات السبعة بلا تراوح أو استبقاء: تضاعف بازدواج ومرافقة (أنت ... أنت الحياة) مرات أربعا، ثم تفرد بالطالع ولم يزدوج [4].

ويتعاظم الانفعال في هذه الأبيات،ليلقف الشاعر المعاني والألفاظ الكبيرة التي تضخمه بذاته (أنت الحياة) وقد تكررت أربعا ينسبها حينا إلى " القدس السامي " و" السحر" ، " ورقة الفجر " ويعتاض عنها من بعد بلفظته "الدنيا" وهذه الأبيات أشبه بهذيان الانفعال الطافر طفرة الحمي[5].

---

[1] – أبو القاسم الشابي: أغاني الحياة،ص184 .

[2] – إيليا الحاوي: أبو القاسم الشابي، شاعر الحياة والموت، ص ص78 – 81 .

[3] – أبو القاسم الشابي:أغاني الحياة،ص185.

[4] – عبد السلام المسدي: قراءة مع الشابي والمتنبي والجاحظ ، ص38 .

[5] – أبو القاسم الشابي:أغاني الحياة،ص184.

– التضرع والتبتل والبوح : (38–54) :

وبعد أن مجد الشاعر جمال الحبيبة غاية التمجيد،عاد يسجد في محرابه ويتبتل له كما يسجد لإله الخلاص، هاتفا كما في الصلوات :

38– يا بنة النور إنني أنا وحدي من رأى فيك روعة المعبود

39– فدعيني أعيش في ظلك العذب وفي قرب حسنك المشهود[1].

وقد انسكب في هذا النداء روحه كلها يناديها بغير نداء،بالشعر الصافي الذي لا معنى محددا له ويضمر أقصى غاية المعاني،وهو لا يطلب أ ن يمتلكها بامتلاك بل أن يحيا بكنفها كالناسك البتول الذي يناجي ربه، والشاعر اجتاز بالجمال عتبة الغيب وهاوية اللبس والألم،واطل له اليقين في أقاليم ثلاثة متوحدة : الجمال والحب والله، وقد اكتفى عن خيرات العالم وضروراته وحاجاته وأدرك الخلاص، والبتولية عصمة عن رغبات الحواس والمادة،وعودة إلى الطهارة الأولى : فتجربة الشابي قد تتعثر،وتنبو وتخبر وتشد وتتحد،وقد تظل تتردد لكنها تطل غالبا في نهاية مطافها على البعد الآخر غير الموطوء بأقدام الناس أو المبذول على أديم الحياة،ولقد انطلق هاهنا من ذاته ومن المرأة والطبيعة ومخاطب الحياة واليأس حتى تآلفت جميعا،واهتدت إلى وحدتها وحقيقتها في الله يستهل بالوجدانية التي تتعاظم وتتخطى ذاتها بالوجودية،فإذا لم تعي ولم تقع حلت في غيب الحياة والنفس وغدت ميتافزيائية، لقد انحلت أنشطة الوجود في نفسه وأدرك السلام :

42– وامنحني السلام والفرح الروحي يا ضوء فجري المنشود[2].

وكمن يصلي فعلا يطلب الرحمة " إرحمي " والخلاص " أنقذني "

43– إرحمني فقد تهدمت في كون من اليأس والظلام مشيد

44– أنقذني من الأسى فلقد أمسيت لا استطيع حمل وجودي [3].

45– في شعاب الزمان والموت أمشي تحت عبء الحياة جم القيود

فهو لا يطلب من المرأة أن تنقذه من حرمان الحب والشهوة،بل يتوسل الإنقاذ الكلي من سجن العالم ومصيره المحتوم بين شدقي الحياة،والموت ودبيب الزمان بسمه الخفي

---

[1] – أبو القاسم الشابي:أغاني الحياة،ص185.

[2] – المصدر نفسه،ص185 .

[3] – المصدر نفسه،ص185.

القاتل،ولو كان أمر المرأة مقتصرا على الحب وحسب في نفسه، لما هجس الزمان ولما حضره عليه الموت،فالعالم لا يغويه أو يرضيه و لا تنقاد نفسه مسرات الناس وأفراحهم، يماشيهم ولا يمشي معهم لأن نفسه " كالقمر " دفنت ذاتها بذاتها فيه قد يتبسم لكن بسمة هي كالوردة الذابلة بين شوك الأنام العالم يرقد كالجيفة في مقبرة ضلوعه وهو يطلب بعث الحب[1].

– تمثيل عالم الحب (55–64) :

وفي نهاية القصيدة يعود الشاعر إلى تمثيل سعادة الحب،بأجواء الطبيعة في خيال تمثيلي جمع الشمس والنجم والربيع والروض والطير ،وهو تأليف بالرغم من صدقه، ينسج فيه الشاعر معالم الطبيعة المثالية المتوهجة بوهج الحلم والشوق[(2)].

هكذا نظر الشابي إلى المرأة،وربطها بالحب تارة وبالطبيعة والكون تارة أخرى فهي الملاك الذي يهبط من عالم الخيال السحري،ليشفي الجراح ويحمل رحيق الوجود المقدس،وقد كانت النظرة الرفيعة للمرأة والحب،خير مساندة لدعوة تحرير المرأة في تونس وفي الوطن العربي ككل،وهي رؤية تومئ إلى تلك النزعة الإنسانية التي تضرب بجذورها في أعماق الشاعر ،الرافض لكل أنواع الظلم والاستبداد،وقد تركت هذه الدعوة الشعرية أثرها في المجتمع التونسي والعربي.

وهكذا رسم الشابي لوحة للمرأة،لتظل في ضميره خيالا بريئا ملاكا تعيد للطبيعة أضواءها وعطرها في نفس الشاعر وفي عالمه،متولدة من عذريته وصوفيته التي أشرقت في نظرته للمرأة والحب[3].

---

(1) – إيليا الحاوي: أبو القاسم الشابي شاعر الحياة والموت، ص 82 – 84 .

(2) – المرجع نفسه ، ص 84 .

(3) – يوسف عطا الطريفي: أبو القاسم الشابي، حياته وشعره، ص 123 .

هـ- الطبائع الفنية:

صدرت هذه القصيدة عن حالتين من تنازع الأضواء والظلمة، أي المثال والواقع في نفس الشاعر، فاليأس من العثور على السعادة والتضجر من واقع العالم المهزوم الهرم المكسو بالعاهة والقبح والشقاء،أذكى في وجدان الشاعر شهوة الموت والجمال الرقيق العذب،المتآلفة فيه جمالات الطبيعة،وفضائل النفس يعزيه عن قساوة الواقع ويعدل به عن شهوة اليأس والعدم،ويسعى إلى أن يعانق فيه السعادة والحقيقة والله الذي يفيض محبته على الوجود بالجمال والجمال هو الحب،والحب هو الخلاص .

وهذه التجربة هي انفعالية في نقطة انطلاقها تغذت بالتأمل وأفادت من تجارب الشاعر في النفس والطبيعة،وهي لا تنطلق من الظلمة إلى النور بل إن النور يشع في حناياها يطل عليه ويكنفه قاع من الظلمة الشفافة والمتكاثفة، فتبدو كغيوم عارضة أو ملازمته لسماء الحب والتفاؤل والصفاء،وقد تؤكد الانفعال من المشاركة أو من الانحلال بين الذات والموضوع، فالشاعر لا يقرر كالعالم أو الحكيم ولا يشاهد العواطف والمواقف جارية على حلبة في نفوس الآخرين،بل إنها تفيض من نفسه لأنه هو الذي يعاني ويتحرى ليتحرر من رق السأم والألم،فشعره وجداني وجذوة الشعر لا تتقد إلا بالوجدانية حيث يصارع الشاعر ويتصارع،وينضج الشعر من نفسه كالدماء أو يتنفس كاللهاث،ذلك أن القصيدة تطلع بمطلع نوراني،كأنما أخذ بروعة الجمال أو كأنه عثر فجأة عليه في طريق البؤس،وقد بدا المطلع كصيحة فرح وانتصار،للعثور على ضائع أو لاكتشاف سر غامض[1].

[1] – إيليا الحاوي: أبو القاسم الشابي، شاعر الحياة والموت، ص 85–86 .

رابعا: استبداده المستعمر

تميزت بيئة الشابي بحياة الضغط والقهر،زمن الحكم العرفي الذي أصدرته فرنسا منذ دخولها تونس عام 1912 م وهو امتداد لسلسلة المحاولات الانتقامية،التي رسمتها فرنسا منذ دخولها تونس في شهر ماي عام 1881 حيث فرضت عليها وضعا جديدا باسم الحماية لتنفيذ سياستها التوسيعية، وضمها إلى أختها الجزائر،إلا أن الشابي لم يقف عند هذه الطفيليات لأنه يغور إلى الجذور العميقة،تحت برقع السياسة الطارئة[1].

فكان الشابي ذلك النبي الذي آمن بالانبعاث الإنساني،وسط أمة فظلت التخبط في مصائرها الهزيلة المهزومة[2].

لذا كان للشاعر الذي يعش قضايا وواقع عصره ومجتمعه،أمنيات وطموحات شاملة يصبوا لأن يراها واقعا ماثلا أمام عينه،لتحقق له السعادة ولقد ذهب العلماء والفلاسفة من قديم الزمن إلى أن أسس السعادة الإنسانية هي الإيمان، الحكمة، الشجاعة، العفة والعدالة وهي قمة الكمالات الإنسانية[3].

ومن هذا المنطلق كانت أهازيج الشابي الملهمة أنشودة الحياة المتغلبة على فنون العنف والاستبداد،ليوقظ شعبه من ركود الإحساس والشعور في معركة سياسية ضد سيطرة الاستعمار الغربي،الذي لا عمل له إلا استبداد الشعب بصورة أليمة.

وهو ما عبر عنه الشابي في قصيدته " فلسفة الثعبان المقدس " تعبيرا عن فلسفة القوة في الحياة التي تبنتها السياسة الاستعمارية،في استبداد الشعوب الضعيفة المغلوبة على أمرها،وذلك من خلال تخيل حوار دار بين " الشحرور " الذي رمز به للخير والضعف و " الثعبان " الذي جعله رمزا للقوة والاستبداد:

فقد كان الشحرور يغني طربا منشدا أغانيه للشمس المشرقة وللأعشاب الندية تعش في قلبه السعادة ويغمر نفسه حب الحياة، لا يضمر الحقد ولا يظهر البغض :

الشاعر الشحرور يرقص منشدا للشمس فوق الورد والأعشاب

---

[1] – إيليا الحاوي: أبو القاسم الشابي، شاعر الحياة والموت، ص 150 .

[2] – إيليا الحاوي: أبو القاسم الشابي، شاعر الحياة والموت ، ص 43 .

[3] – حامد زهران: الصحة النفسية والعلاج النفسي، عامل الكتب للقاهرة، ط 2 ، عام 1442 هـ ، 2007 م ، ص 13

شعر السعادة والسلام ونفسه سكرى بسحر العالم الخلاب [1].

ولكن الثعبان يصطغى عليه ويحسد عليه عيشه،أراد أن يصرعه بصرع السعادة باغتيال السلام بقتل الطمأنينة يبيد الحب ليحل محله الدمار، ينزع السلام ليقر الحرب .

ورآه ثعبان الجبال فغمه ما فيه من مرح وفيض شباب
وانقض مظطغنا عليه كأنه سوط القضاء ولعنة الأرباب
بغت الشقي فصاح في عول القضا متلفتا للصائل المنتاب[2].

وقف الشحرور أمام العدو المتربص، يصرخ لا يجد سلاحا يشهره حاول أن يبحث عن الأسباب التي جعلت المجرم ينقض عليه وأخيرا عثر عليها :

وتدفق المسكين يصرخ ثائرا ماذا حنيت أنا فحق عقابي
لا شيء إلا أنني منعزل بالكائنات مفرد في غابي
ألقى من الدنيا حنايا طاهرا وأبثها نجوى الحب الصابي
أبعد هذا في الوجود جريمة أين العدالة يا رفق شبابي ؟[3].

وأخيرا اهتدى الشحرور إلى الإجابة،طرح سؤالا وأجاب عنه أن سعادة الضعيف تعتبر جرما عند القوي يجب أن تسلب،وأن العدل في هذا الوجود لا يمكن أن يتحقق إلا إذا تعادلت القوى وتساوت،فلا عدل ولا حق غير مدعم بالقوة،فطائر الشحرور كائن مسالم رمز به الشاعر إلى الإنسان الضعيف المسالم الذي لا تتعدى دائرة اهتمامه عيش الحياة البسيطة الهادئة،الخالية من المطامع والنزوات والتعدي على حقوق الآخرين[4].

يقول الشاعر على لسان الشحرور :

لا أين ؟ فالشرع المقدس هاهنا رأى القوي وفكرة الغلاب
وسعادة الضعفاء جرم مآله عند القوي سوى أشد عقاب
ولتشهد الدنيا التي غنيتها حلم الشباب وروعة الإعجاب

---

[1] – أبو القاسم الشابي: أغاني الحياة،ص277.

[2] – المصدر نفسه،ص277.

[3] – المصدر نفسه،ص277.

[4] – فخري أحمد حسن طمليلة: أبو القاسم الشابي دراسة في حياته وأدبه، جامعة الأزهر، كلية اللغة العربية، الدراسات العليا، الأدب والنقد (ط ، بدون) ، 1973 ، 1974 ، ص 77 ، 78 .

أن السلام حقيقة مكذوبة والعدل فلسفة اللهيب الخابي
لا عدل إلا إن تعادلت القوى وتصادم الإرهاب بالإرهاب [1].

فالشحرور أصبح موقنا بأن لا سلام ولا عدل يهبه القوى هدية للضعيف وإنما السلام والعدل يحققان بتعادل القوى .

فالقوي لا يخشى إلا القوي،وبالتالي فهو لا يسدل ستائر العدل بينه وبين الضعيف بل يحجبها ويطويها،ليفترس ذلك الضعيف لا لشيء سوى ضعفه وقلة حيلته،ولقد أجاد الشاعر التعبير والإفصاح عن فكرته بدءا باختياره أدوات رمزه (الشحرور والثعبان) ثم اعتماده أسلوب السرد أو الحكاية، فهوعن طريق هذا الأسلوب استطاع أن يجسد ويصور تصويرا دقيقا حياة هذا الشحرور المسالم ودائرة اهتمام،ويصور موقف الثعبان الظالم المستبد،الذي ساءه رؤية الشحرور يرفل في عز الأمن والسلام،ظلما وعدوانا وطغيانا واستبدادا .

فالشابي في هذه القصيدة يقف بالمتلقى على ما يتمنى أن يسود المجتمع،من عدل وسلام تنزع إليه النفوس السوية،والذي لا يتحقق إلا إذا جوبهت القوة بالقوة وأخذ الظلم والعدوان بقضة من حديد،وأن السلام والعدل والمنطق وكل ما اتفق عليه شرائع الأديان والإنسان حقائق في أذهان الضعفاء وحدهم،أما الأقوياء فلا يردعهم إلا عنيد جبار يخاطبهم بلغتهم [2].

فدحروا الظلم والاستبداد،كما قال الشابي لا يكون إلا إذا تعادلت القوى وتصادم الإرهاب بالإرهاب،ومن هذا المنطلق اهتم الشاعر " بالعدل " هذه الصفة الإنسانية التي تمنى حضورها،فقال الشابي على لسان الشحرور في ختام قصيدته فلسفة الثعبان المقدس السابقة الذكر :

فأجابه الشحرور في غصص الردى والموت يخنقه إليك جوابي
لا رأي للحق الضعيف ولا صدى والرأي رأي القاهر الغلاب[3].

---

[1] – أبو القاسم الشابي: أغاني الحياة،ص277.

[2] – نعمان أحمد فؤاد: شعب وشاعر، أبو القاسم الشابي، الدار العربية للكتاب، ليبيا، تونس، ط 2 ، 1397 هـ –1977م ص 144 .

[3] – أبو القاسم الشابي: أغاني الحياة،ص278.

ففي جواب الشحرور تظهر نبرة الألم المتشبثة بخيوط الأمل والأمنية في استشارة صفة البطولة والشجاعة في النفوس لتناهض الظلم، وتدحر العدوان وتقهر الطغيان .

أما في قصيدته " يا حماة الدين "، فهو يوجه نداءه ويطلق صوته نحو علماء الدين تحديدا ليهبوا للدفاع والاستبسال في دحر الظلم وقهر العدوان،الذي طال ديار الإسلام والمسلمين فيقول :

أفيقوا، وهبوا هبة صيغمية ولا تحجموا فالموت في الجبن جاثم "[1]

فاستبداد المستعمر جعله ينصح أبناء شعبه،لاسيما علماء الدين منهم بأن يهبوا وينطلقوا بقوة وشجاعة " ضيغمية " نحو المستبد المحتل،ولا يجبنوا أبدا لأن في الجبن حتفهم ونهايتهم، وإنا لنشعر بصدق العاطفة من خلال تلك النبرة الحادة الصارمة التي نجمت عن فعلي الأمر أفيقوا وهبوا، والفعل المضارع المسبوق بأداة النهي (لا) رغبة منه في استنهاض همم القوم .

وحول هذا المعنى نفسه يقول الشابي في قصيدته " يا ابن أمي.

فمالك ترضى بذل القيود وتحنى لمن كبلوك الحياة ؟ "[2]

وهنا يتساءل الشابي في مرارة كيف للإنسان الحر القبول بالذل والقيود وللشابي مقطوعة بعنوان " قالت الأيام " يستشف منها أمله الحاضر،وحلمه المستمر في استيقاظ المظلومين المقهورين من سبات ضعفهم،استيقاظ قوة وشجاعة للذود عن حمي حقوقهم ودفع الظلم عنهم حين يصرخ مهددا الظالم المستبد :

يأيها السادر في غيه ! يا واقفا فوق حطام الحياة
مهلا ففي أنات من دستهم صوت رهيب سوف يدوي صداه
يا أيها الجبار ! لا تزدري فالحق جبار طويل الأناه
يغفى وفي أجفانه يقظة ترنوا إلى الفجر الذي لا تراه [3].

فنزعة الشابي الإنسانية النبيلة جعلته متفائلا،أملا في توهج جذوة الشجاعة والقوة في قلوب المظلومين،حينما يهدد الظالم المستبد بثقة متناهية،من خلال مفرداته المنتقاة التي تبين

---

[1] – أبو القاسم الشابي: أغاني الحياة،ص165.

[2] – أبو القاسم الشابي: أغاني الحياة،ص130.

[3] – أبو القاسم الشابي: أغاني الحياة،ص92.

عن تأجج العاطفة وعمق صدقها حين قال : " مهلا " في أنات من دستم،صوت رهيب،يدوي صداه،فالحق جبار،وفي أجفانه يقظة ومن خلال ذلك الإيحاء ينعطف على ذاته ليخرجها من وجوم الصمت المغلف بمتهات القلق،ويدفعها نحو عاصف الدهر التي لا تصده مفزعات الأحداث فيقول :

سر مع الدهر، لا تصدنك الأهوال أو تفز عنك الأحداث
سر مع الدهر، كيفما شاءت الدنيا ولا يخدعنك النفاث
فالذي يرهب الحياة شقي سخرت من مصيره الأحداث[1].

ومن هذا المنطلق الحي في ضمير يدعو كل مواطن مؤمن بحق الدفاع عن وطنه المغتصب أن يصوغ من مقتبسات الماضي المضيء بأنوار المندفعين في دروب التحدي للغزاة، نفحات حب الأوطان المفتداة بالأرواح، ويردد أشواق الإنسان الزاحف إلى الحق المطلق ليذوب في فجر الجمال السرمدي وهو يصدح بقوله النشيد المردد :

يا أيها الجبار ! لا تزدري فالحق جبار طويل الأناة
يعفو وفي أجفانه يقظة ترنو إلى الفجر الذي تراه

وكلما علا الترداد صداحا جاء النشيد وحيا مقدسا وفيضا من وجود تخفق نبضات حياته بغرادة تعبر عن الحب والخير للعالم أجمع[2].

وفي مقطوعة " خلة للموت " يختنق غيظا وقهرا وثورة وغضبا ضد كل من ارتضى الذل والهوان لباسا،وقبل الجبن والضعف والتقاعس وشاحا فضعف واستكان أمام المحتل الغاصب :

كل قلب حمل الخسق وما مل من الحياة الأرذل
كل شعب قد طغت فيه الدما دون أن يثار للحق الجلي
خلة للموت يطويه فما حظه غير الفناء الأنكل[3].

---

[1] – أبو القاسم الشابي:أغاني الحياة،ص87.

[2] – عبد المجيد الحر: الأعلام من الأدباء والشعراء، أبو القاسم الشابي، دار الكتب العلمية، بيروت – لبنان، ط 1 ، 1995 ، ص 116–117 .

[3] – أبو القاسم الشابي: أغاني الحياة، ص21.

وكأنـه بهذه الثورة وذلك الغضب أراد أن يشحذ الهمم ويقوي ويثير النفوس لمحاربة المحتل وطرده [1].

وكان الشابي الصرخة التي تخاطب المستبد المستعمر قائلة:

لك الويل يا صرح المظالم من غد إذ نهض المستضعفون وصمموا !
إذ حطم المستعبدون قيودهم وصبوا حميم السخط أيان تعلم ... !
أغرك أن الشعب معضي على قذى وأن الفضاء الرحب وسنان مظلم ؟ [2].
ألا إن أحلام البلاد دفينة تجمجم اليوم الذي يترنم

لذا فالشابي يمقت النفوس الضعيفة والقلوب المستكينة والمشاعر الميتة لدى أبناء الشعب عندما يخترق أرضهم سوط الظلم والبغي والاستبداد والعدوان أو تصيب عقولهم وقلوبهم استكانة السلاحف وضعف بيوت العناكب.فبحر الحياة مترامي الأطراف بعيد الجنبات فأين المغامر المقدام،الذي يمكنه خوض هذا البحر بقوة وصلابة وقدرة فائقة ! ؟

يود الفتى لو خاض عاصفة الردى وصد الخميس المجر والأسد الوردا
ليدرك أمجاد الحروب ولو درى حقيقتها ما رام من بينها مجدا
فما المجد في أن يسكر الأرض بالدما وتركب في هجائها فرنسا نهدا
ولكنه في أن تصد بهمة عن العالم المزروء فيض الأسصدا[3].

وتمنيات الشاعر في هذه الأبيات تباشر فرحه واستبشار بتفاؤل الغد القريب،المطل بإرادة الشعب الوفي لأرضه الذي يستجيب له القدر فيجلى المتسعمر الغاصب ويحطم القيد، حين يعانقه شوق الحياة إلى معانقة شمس الحرية[4].

ومن هنا نلمس أن الشاعر اتخذ وسائل شتى ليوقظ أبناء شعبه على ما يدور حولهم وما ينبغي أن يبادروا به المستعمر المستبد،ويتوخوه لينهضوا بالوطن ويعلوا الأمة فتارة تعلوا نبرة الاستنهاض والتمني،لتقترن بالثورة والغضب، وتارة تصبح تهديدا ووعيدا وتحذيرا للعدوان، ومرة ثالثة تنطلق نحو الشعب في دعة وهدوء وحب وتحنان،ورابعة تتسلسل نبرة الحزن ونظرة

---

[1] – رجاء النقاش: أبو القاسم الشابي، شاعر الحب والثورة، ص 11 .

[2] – أبو القاسم الشابي:أغاني الحياة،ص64.

[3] – أبو القاسم الشابي:أغاني الحياة،ص80.

[4] – عبد المجيد الحر: الأعلام من الأدباء والشعراء، ص 115– 116 .

التأمل الكوني لتندمج وتتجانس مع تجربته الإنسانية الرافضة لكل فنون العنف والاستبداد كالذي يظهر في قصيدته " أيها الليل " عندما يقول :

أيها الليل أنت نغم شجي في شفاه الدهور بين النحيب
إن أنشودة السكون التي ترتج في صدرك الركود الرحيب
تسمع النفس في هدوء الأماني رنة الحق والجمال الخلوب
فتصوغ القلوب منها أغاريدا تهز الحياة هز الخطوب[1].

يرى الشابي في سكون الليل الرحيب جمالا من نوع فريد، ففي ذلك الوقت الساكن الهادئ يسطع شريط الأماني في الذاكرة،يلمع الحق الذي يستظهره هدوء الليل في فؤاده، فيصبح أمنية حاضرة، فكأنما يتمنى أن يرى صوت الذود عن الحق هو المجلجل وهو المسيطر لأن ذلك الحق افتقد تحت وطأة الظلم والجبروت والاستبداد والطغيان فأصبحت الحياة جحيما لا يطاق يجسده ويصوره الشابي للعيان في قصيدته " الجنة الضائعة" في قوله :

أواه قد ضاعت علي سعادة القلب الغرير
وبقيت في وادي الزمان الجهم أذاب في المسير
وأدوس أشواك الحياة بقلبي الدامي الكسير
وأرى الأباطيل الكثيرة والمأثم والسرور
وتصادم الأهواء بالأهواء في كل الأمور
ومذلة الحق الضعيف وعزة الظلم القدير
وأرى ابن آدم سائرا في رحلة العمر القصير
مسلقا جبل الحياة الوعر كالشيخ الضرير[2].

إن هذا الجو المكفهر الذي يراه ويشعر به مرده استبداد حق الضعيف وعزة الظلم القدير، وإن الحق عندما يندثر ويدوب في كؤوس الأهواء والمأثم والشرور،مما يجعل صاحبه يعش في ضنك وألم وشدة،كأنه وهو يصارع في هذه الحياة ويحاول شق طريقه فيها شيخ ضرير يتسلق جبلا، وما أجمل الصورة التي جسد بها الشابي معناه إذا أبانت عن صورة الحياة بوضوح عندما يندثر الحق ويخمده صوت المستبد،وفي قصيدته إلى طغاة العالم يتحه

---

[1] – أبو القاسم الشابي: أغاني الحياة،ص75.

[2] – أبو القاسم الشابي:أغاني الحياة،ص216.

نحو الطغاة الغاصبين محذرا إياهم من مغبة ظلمهم واستبدادهم،وفتكهم بالشعوب الضعيفة إن الاستعمار البشع الغاشم الذي ألقى بكلاله على صدر أمته وإنها لتتذوق منه ومن ظلمه، وبطشه الأمرين فترفع رأسها تريد أن تحيا حياة حرة كريمة فينهال عليها ضربا وطعنا حتى تخر مهيضة، وهي تئن أنين الثكلى، ويهب الشابي في وجه المستعمر فيلطمه بمثل قوله: في قصيدته إلى " طغاة العالم "

ألا أيها الظالم المستبد حبيب الفناء عدو الحياة
سخرت بأناة شعب ضعيف وكفك مخضوبة من دماء
وعشت تدنس الوجود وتبذر شوك الأسى في رباه
رويدك لا يخدعنك الربيع وصحو الفضاء وضوء الصباح
ففي الأفق الرحب هول الظلام وقصف الرعد وعصف الرياح
تأمل ! هناك أنى حصدت رؤوس الورى وزهور الأمل
ورويت بالدم قلب التراب وأشربته الدمع حتى ثمل
سيجرفك السيل سيل الدماء ويأكلك العاصف المشتعل [1].

إن هذه الأبيات تقطر غضبا وتهديدا ووعيدا ضد أولئك الطغاة المستبدين في الحياة وتثير انتفاضة في نفوس المستضعفين في أوطانهم،وما أبلغ هاتين الصورتين اللتين أنهى بهما تحذيره : " تحت الرماد اللهيب " و " من يبذر الشوك يجن الجراح " ففيهما خيوط الأمل والرجاء تزداد متانة وقوة وسوط الغضب يزداد إيلاما وتأثيرا،فهو يسجل على عدو شعبه ظلمه واستبداده وما يفسح من دمائه الزكية وإنه ليدنس رباه الطاهرة بما يغرس فيها من شوك الأسى والألم ويقول له مهلا "،لا يخدعنك ما ترى من الصحو وابتسام النور في الربيع، فستعصف بك عما قليل ريح تجرفك هي وأمواج الدماء التي أسلها دموعا حمراء في جنبات الوطن إن كل ذلك سيلتف بك وسيبتلعك في جوفه ابتلاعا[2]. هذا الإحساس الحاد الذي يجعل الشاعر يحس في أعماقه آلام أمته وأوجاعها تلقاء المستعمر فينتفض، ويزأر في وجه الغاصب زئير العاصفة إذ يقول :

---

[1] – أبو القاسم الشابي:أغاني الحياة،ص264.

[2] – شوقي ضيف: دراسات في الشعر العربي المعاصر، دار المعارف، مصر، مكتب الدراسات الأدبية، ط8، (د، س)، ص 150– 151.

ألا أيها الظالم المصعر خده رويدك إن الدهر يبني ويهدم
أغرك أن الشعب مغضب على قذى لك الويل من يوم به الشر قشعم
رجال يرون الذل عارا وسبة ولا يرهبون الموت والموت مقدم
ألا إن أحلام البلاد دفينة تجمجم في أعماقها ما تجمجم
ولكن سيأتي بعد لأي نشورها وينبثق اليوم الذي يترنم
هو الحق يبقى راكدا فإذا طغى بأعماقه السخط العصوف يدمدم [1].
وينحط فالصخر الأصم إذ هوى على هام أضام العتو فيحطم

وهو في هذا الزئير يدمدم دمدمة الأسد لا يقف في صف أمته فحسب،بل هو ينطق بلسانها وروحها ويعبر عن ضميرها ومكنون أحلامها وأنها لابد يوما أن تثأر لكرامتها وحريتها التي استبدها المستعمر [2]. وممهد لإطلالة فجر جديد، تبزغ فيه شمس الحرية بنورها المتوهج [3].

---

[1] – أبو القاسم الشابي:أغاني الحياة،ص280.

[2] – شوقي ضيف: دراسات في الشعر العربي المعاصر، ص 151–152 .

[3] – عبد المجيد الحر: الأعلام من الأدباء والشعراء ، ص 121 .

1- تحليل نموذج (نشيد الجبار)

أ- عرض أبيات القصيدة (نشيد الجبار):

سَأعيشُ رَغْـمَ الـدَّاءِ والأَعـداءِ كالنَّسْـر فـوقَ القِمَّـةِ الشَّمَّـاءِ
أرْنُو إلى الشَّمْسِ المُضِيئةِ هازِئـاً بالسُّحْـبِ والأَمطـارِ والأَنـواءِ
لا أرْمقُ الظِّلَّ الكئيـبَ ولا أرَى مَا فـي قَـرارِ الهُـوَّةِ السَّـوداءِ
وأَسيرُ في دُنيا المَشَاعـرِ حالِمـاً غَرِداً وتلـكَ سَعـادةُ الشعَـراءِ
أُصْغي لمُوسيقى الحَياةِ وَوَحْيِهـا وأذيبُ روحَ الكَوْنِ فـي إنْشَائـي
وأُصيخُ للصَّوتِ الإلهـيِّ الَّـذي يُحْيـي بقلبـي مَيِّـتَ الأَصْـداءِ
وأقـولُ للقَـدَرِ الَّـذي لا ينثنـي عَنْ حَـرْبِ آمالـي بكـلِّ بَـلاءِ
لا يُطْفِئُ اللَّهبَ المؤجَّجَ في دمـي موجُ الأسى وعواصـفُ الأَزراءِ
فاهدمْ فؤادي ما استطعـتَ فانَّـهُ سيكون مثلَ الصَّخـرة الصَّمَّـاءِ
لا يعرفُ الشَّكوى الذليلَة والبكـا وضراعَة الأَطفـالِ والضّعفـاءِ
ويعيـشُ جبَّـاراً يحـدِّق دائمـاً بالفجر بالفجـرِ الجميـلِ النَّائـي
إملأْ طريقي بالمخاوفِ والدُّجـى وزوابـعِ الأَشـواكِ والحصبـاءِ
وانْشر عليه الرُّعب واثـر فوقـه رُجُمَ الرَّدى وصواعـقَ البأسـاءِ
سَأَظلُّ أمشي رغمَ ذلـك عازفـاً قيثارتـي مترنِّـمـاً بغنـائـي
أَمشـي بـروحٍ حالـمٍ متَوَهِّـجٍ فــي ظُلـمـةِ الآلامِ والأَدواءِ
النُّور في قلبي وبيـنَ جوانحـي فَعَلامَ أخشى السَّيرَ فـي الظلمـاءِ
إنِّـي أنا النَّـايُ الَّـذي لا تنتهـي أنغامُـهُ مـا دام فـي الأَحيـاءِ
وأنا الخِضَمُّ الرحْبُ ليس تزيـدُهُ إلاَّ حيـاةً سَـطْـوةُ الأَنــواءِ
أمَّا إذا خمدت حياتـي وانقضـى عُمُري وأخرسَتِ المنيَّـةُ نائـي
وخبا لهيبُ الكون في قلبي الَّـذي قد عاش مِثْلَ الشُّعْلَـةِ الحمـراءِ
فأنـا السَّعيـد بأَنَّنـي مُتحـوِّلٌ عـن عالـمِ الآثـامِ والبغضـاءِ
لأذوبَ في فجر الجمال السرمديِّ وأرتوي مـن مَنْهَـلِ الأَضـواءِ

وأَقولُ للجَمْـعِ الَّذيـن تجشَّمـوا هَدْمي ووَدُّوا لـو يخـرُّ بنائـي
ورأوْا على الأَشواكِ ظلِّيَ هامِداً فتخيَّلـوا أَنِّـي قضيْـتُ نَمائـي
وغدوْا يَشُبُّون اللَّهيبَ بكـلِّ مـا وجدوا ليشـوُوا فوقَـهُ أشلائـي
ومضَوْا يَمُدُّونَ الخُـوَانَ ليأكلـوا لحمي ويرتشفـوا عليـه دِمائـي
إنِّي أقولُ لهمْ ووجهـي مُشـرقٌ وعلى شفاهـي بَسْمَـةُ استهـزاءِ
إنَّ المعـاوِلَ لا تَهُـدُّ مناكـبـي والنَّارَ لا تأتي علـى أعضائـي
فارموا إلى النَّار الحشائشَ والعبوا يا مَعْشَرَ الأَطفالِ تحـتَ سَمائـي
وإذا تمرَّدتِ العَواصفُ وانتشـى بالهـولِ قلْـبُ القبَّـةِ الزَّرقـاءِ
ورأيتمونـي طائـراً مترنِّـمـاً فوقَ الزَّوابعِ في الفَضاءِ النَّائـي
فارموا على ظلِّي الحجارةَ واختفوا خَوْفَ الرِّياحِ الْهـوجِ والأَنـواءِ
وهناكَ في أمنِ البيوتِ تطارحـوا غَـثَّ الحديـثِ ومـيِّـتَ الآراءِ
وترنَّمـوا مـا شئتمُو بِشَتَائمـي وتجاهَـروا مـا شئتمُو بعِدائـي
أمَّا أنـا فأُجيبكـمْ مِـنْ فوقكـمْ والشَّمسُ والشَّفقُ الجميـل إزائـي
مَنْ جَاشَ بالوحي المقدَّسِ قلبُـه لـم يحتفـل بحِجَـارةِ الفلـتـاءِ[1].

[1] – أبو القاسم الشابي:أغاني الحياة،ص 256..

ب- قراءة في مضمون القصيدة:

نشيد الجبار أو "هكذا عن برومثيوس" قصيدة كتبها عام 1933 والتي تقع نحو ستة وثلاثون بيتا،استهلها بالإطلالة على المستقبل الذي يأمل فيه بالعيش الكريم مقاوما أعداءه متخذا من النسر الذي يرفرف في الأعالي شبيها وموازيا يصور توق نفسه للعلو والسمو والعزة،مشيرا إلى حاله المتردية جراء استبداد المستعمر،وجراء مرضه العاتي وهو ما زرع الألم والوحدة في نفسه مثل" بروميثيوس " وهو إله الأساطير اليونانية القديمة، دافع عن الإنسان، فعاقبته الآلهة الأخرى عقابا شديدا لكنه كان صلبا لم يتزحزح وظل متحديا مع كل ما يواجهه، وقد اختار الشابي هذه الشخصية اليونانية القديمة لأنها ترمز إلى الصمود والتحدي والثورة مع الألم.

ويبدو أن الشابي يشير من خلال "بروميثيوس" إلى شخصه الذي اهتم بتحسين أوضاع البلاد رغم وقوف الأعداء،فقد وقف الشابي أمام الأعداء والقدر منتصرا معلنا أن النهاية حياة أخرى،هي الخلود لذا سيظل الشابي يناضل ويقاوم،فدمه لهيب وقلبه كالصخرة الصماء،لا يشكو ولا يبكي ولكنه يقاوم ليخلد في السماء لذا سيعيش جبارا يحدق بالفجر بالنور بالأمل بالحياة،فالذي يصر ويتحدى لا ينطفئ نوره وعلى العموم تحمل القصيدة مقصديتين: الأولى مقصدية تدعوا المتلقي إيحاءا وإضمارا إلى تمثل فلسفة القوة والحياة عبر التشبث بالأمل والطموح والتحدي والشجاعة،والفرح والاستجابة لله والطبيعة أما المقصدية الثانية إدانة المخاطب لوما وتقريعا وتعنيفا وسخرية مادام قد اختار فلسفة هدم الآخرين ترويعا واستبدادا وتخويفا ونبش أعراضهم والاعتداء عليهم .

ومن هنا يتضح لنا بأن هذه القصيدة ا تعبيرا صادق وجريء عن ثنائية النور والظلمة،وثنائية الحياة والموت،كما أنها قصيدة ملحمية تتغنى بفلسفة القوة والحياة والأمل والحب والبناء، في مواجهة فلسفة الاستبداد والضعف والخضوع والاستسلام والحقد والكراهية والهدم[1].

---

(1) – إليا الحاوي:أبو القاسم الشابي شاعر الحياة والموت ،ص76

ج- طرح أفكار القصيدة:

1- الأبيات من (1-6) : ثقة الشاعر بنفسه أمام قوة المستعمر وظلمه واستبداده

2- الأبيـات مـن (7-13) : يتحدى الشاعر في هذه الأبيات الأعداء من خلال القدر حين شخص القدر وحاوره وتحدث إليه .

3- الأبيات من (14-22) : تفاؤل الشاعر بالمستقبل والسعادة بالخلاص

4- الأبيات من (23-36) : السخرية من المستعمر المستبد وتحديه .

د- الشرح والتحليل :

- الأبيات من (1- 6) : ثقة الشاعر بنفسه أمام قوة المستعمر وظلمه واستبداده.

فقد ذاق الشابي قسوة المرارة التي أملتها الظروف السياسية،التي حلت ببلده تونس وتخلى الآخرين عنه ويبدوا أن صراعه مع الآخرين كان أشد على نفسه من صراعه مع المرض لذا سيحيا قويا شديدا رغم المرض الشديد ورغم ظلم الأعداء،كالنسر عاليا مرتفعا فوق قمم الجبال،متطلعا إلى الشمس المرتفعة المشرقة بضوئها، ساخرا من السحب التي تغطي الحقيقة والأمطار الشديدة والأنواء،ولا ينظر بطرف عينه إلى الظلال ولا إلى الحفر البعيدة السوداء ولن تتكسر همته .

ولعل هذا ما دفعه لاستحضار الأعداء في مستهل قصيدته بصيغة الجمع، ليدل على أمله في الانتصار، ولا يملك الشابي سوى كلماته البسيطة وسخريته الهازئة، وأمله بالإنعتاق من غياهيب ظلم أعاديه وتوقه إلى الحرية التي رمز لها بالشمس، ودحره لقوة الشر التي رمز لها بالسحب والأمطار والأنواء .

2- أرنو إلى الشمس المضيئة هازئا بالسحب والأمطار والأنواء[1].

ويدفعه توقه إلى الحرية، إلى أن يغض طرفه عن رؤية الظلام الذي بثه الأعداء في وطنه،وقد كان الشابي ذكيا حين عد هذا الظلام مجرد ظل،لا حقيقة له وأن مصير هذه الظلمة الهوة، التي يردمها الشعب التونسي ويعلوها متخطيا .

3- رمق الظل الكئيب ... ولا أدري .. ما في قرار الهوة السوداء ... [2].

ويطري على سطور قصيدته الطابع الرومنسي،الذي كلل القصيدة في أجواء الأحلام والمشاعر والطبيعة ومكوناتها،بما يحقق كينونة الشابي الخاصة وسعادته التي عاشها في هذه الأجواء النقية والصافية من المنغصات،والبعيدة عن عالم الاستبداد والشر .

4- وأسير في دنيا المشاعر حالما غردا - وتلك سعادة الشعراء[3].

5- أصغي لموسيقى الحياة ووحيها وأذيب روح الكون في إنشائي

---

[1] - أبو القاسم الشابي:أغاني الحياة،ص 256 .

[2] - أبو القاسم الشابي: المصدر نفسه،ص 256 .

[3] - أبو القاسم الشابي:المصدر نفسه،ص 256 .

فالكون يحوي من الجمال ما يوحي للشابي لموسيقى الوجود وأنغامه الشاعرية الخالدة، التي تفجرت ريثما ذابت روحه بأنفاس الطبيعة،وأصغت لوحي الحياة وإيقاعها الجميل الحي .

ولم يكن الحس الرومنسي وحيدا في حضوره وتجلياته،إذا تنفس الشاعر الصعداء الأجواء الصوفية،ليبث الجمال الكامن في قرارة قلبه الذي حاول الأعداء في إطفاء نوره وصدى رجعه،وما هذه المحاولة إلا خطوة أولى،في طريق إحياء هذا القلب الذي أعيته الهموم وهده المرض .

6– وأصيح للصوت الإلهي الذي يحيي بقلب ميت الأصداء[1].

لذا سيبقى حالما مغردا إلى الحرية،مصغيا إلى موسيقى الحياة وإلهامها ليسيل الوجود المطلق في قصيدته،مستمعا إلى صوت الحق والكرامة الذي يحيي القلوب الضعيفة[2].

– الأبيات من (7–13) : تحدي الشاعر الأعداء من خلال القدر حيث شخص القدر وحاوره وتحدث إليه وهو يري :

أن القدر يحارب آماله التي يود تحقيقها،بكل ما فيه من ظلم وجبروت ويرسل عليه شتى صنوف المصائب،لكن الشاعر يقف أمام هذا القدر ليرد عليه بعدم قدرته إطفاء جذوة النار المؤججة في دمائه،مهما كثرت مصائبه ومهما هاج موجه وعواصفه،ثم يتحدى القدر في مرض أو مصيبة أي أنه يرضى بقضاء الله .

ويوجه الشابي صرخة لكل ما يثنى آماله ويهدها،فيقيم مقابلات في ثنايا قصيدته تظهر رغبته في المجابهة ومقاومته هذه القوة في قوله :

فاهدم فؤادي ما استطعت فإنه سيكون مثل الصخرة الصماء [3].

والشابي يعبر عن صموده وعدم اكتراثه بالأعداء،فهو كالصخرة الصلبة التي لا يهزها شيء ولا تهدمها القوة مهما تكالبت عليها .

ومن خلال هذا التحدي فلن يذل الشاعر ولن يستكين،ولن يبكي ويتضرع دون أن يضعف أو يستسلم، بل سيظل يحيا حياة الجبارين،وهو يتطلع إلى بزوغ الفجر الجديد

---

[1] – أبو القاسم الشابي:أغاني الحياة،ص 256 .

[2] – يوسف الطريفي: شعراء أعلام، أبو القاسم الشابي حياته وشعره، ص 114 .

[3] – أبو القاسم الشابي:أغاني الحياة،ص 257 .

الجميل وإن كان ما يزال بعيدا،وحتى يطل الفجر فلن يخيفه الظلام الذي يعترض طريقه أو الأشواك المؤذية أو الحجارة لأنه قادر على تجاوز كل ما يعترضه،ويؤكد الشاعر أنه يتحدى الخوف كما يتحدى الردى والموت،وكل ألوان البأساء التي وصفها بالصواعق .

– الأبيات من (14–22) : تفاؤل الشاعر بالمستقبل والسعادة بالخلاص من مآسي الحياة، ويستمر الشاعر في تحديه بأنه سيبقى مستمرا صامدا،وسيظل صادحا بشعره مترنما بقصيدته،مستمرا في إصراره على الصمود،كالنجم المتوقد في الظلام أو من خلال آلام المرض موظفا في تحديه هذا أسطورة" بروميثيوس" اليونانية، رامزا من خلالها إلى التضحية والمعاناة في،سبيل الدفاع عن الحق والإنسانية فالأمل يحدوه في قلبه وبين ضلوعه،ولذلك لن يخشى السير في الظلماء وسيبقى حيا بنايه وأنغامه التي لا تتوقف ولا تنتهي،وهو يشبه نفسه بالبحر الواسع الذي تتلاطمه لأمواج وشدتها،ولكنها لا تزيده إلا إصرارا وعزما .

15– سأظل أمشي رغم ذلك عازفا قيتارتي مترنما بغنائي

16– أمشي بروح حالم، متوهج في ظلمة الآلام والأدواء [1].

ويبقى الشابي يطوف في الأجواء الرومنسية والصوفية،فهو يرى أن الظلام الذي يحيط به خارجي ولا يمس قراره قلبه،المملوء بالنور الذي يضيء له طريقه في الحياة دون خشيته من الظلم والظلام والاستبداد والطغيان .

17– النور في قلبي وبين جوانحي فعلام أخشى السير في الظلماء! [2].

ويقدم الشابي واصفا لذاته يتواءم مع شاعريته ورومنسيته العالية،فهو ناي أنغامه دائمة ولا ريب أن أنغامه هي أشعاره التي بث فيها رفضه لكل فنون الاستبداد والظلم والطغيان،وبث فيها مشاعره الإنسانية الرفيعة وشارك فيها غيره الهموم والأحزان .

18– إني أنا الناي الذي لا تنتهي أنغامه مادام في الأحياء

وهو يشبه نفسه بالبحر المتسع ويرى أن أعداه الطغاة المستبدين،مثل الرياح والعواصف التي لامست هذا البحر فزادته قوة وعلوا .

19– وأنا الخصم الرحب ليس تزيده إلا حياة سطوة الأنواء[3].

---

[1] – أبو القاسم الشابي:أغاني الحياة،ص 257 .

[2] – المصدر نفسه،ص 257.

[3] – أبو القاسم الشابي:أغاني الحياة،ص 257.

ويقلب الشابي الموازين فيصبح الموت الذي يخشاه الخلق،حبيبه المرتقب الذي ينشر السعادة الأبدية في روحه ذلك أن رؤيته للحياة الإنسانية لم تكن على ما يرام فالدنيا في نظره للمستبدين الآثمين،الذين يعشون على البغض والبغضاء .

20– أما إذا خمدت حياتي وانقضى عمري وأخرست المنية نائى

22– فأنا السعيد بأني متحول عن عامل الآثام والبغضاء[1].

وهنا يقرأ الشابي أنه في حالة ما إذا قضي الأمر ،وانتهت حياته وتوقف نايه وانطفأ القلب الذي كان حياة مشتعلة قوية،فهو سعيد لأن الموت انتقال من حياة الآلام والاستبداد ليذوب في فجر الجمال الخالد،والسعادة الدائمة والنور الساطع[2].

– الأبيات من (23–36) : السخرية من المستعمر المستبد وتحديه

يخاطب الشاعر أعداء الأمة في هذه الأبيات ويبن لهم فضائحهم للشعب المقهور المستبد من احتلالهم بأن هذا الظلم والطغيان والاستبداد لن يستمر طويلا ونهب الخيرات لن يدوم فهو يحمل من الإيمان الشاعري ما يعينه على البقاء والمواجهة ويصور في رؤيته تلك نوعين من العداء أولهما الشخصي والآخر الجماعي على الوطن والمواطن يقول :

23– أقول للجمع الذين تجشموا هدمي وودوا لو يحد بنائي

28– إن المعارك لا تهد مناكبي والنار لا تأتي على أعضائي

29– فارموا إلى النار الحشائش والعبوا يا معشر الأطفال تحت سمائي[3].

ويبدوا أن أعداءه كثر " جمع " وأنهم تعمدوا إذاءه " تجثموا " وتمنوا موته وزواله لما كان يحمله في روحه ونفسه من آراء وأفكا، تنهض بالإنسان والوطن المنتهك المستبد،وصور الشابي أعداءه على أنهم أطفال تمردوا في لعبهم على الأرض ولم يستطيعوا أن يطالوا بتمردهم سماءه العالية،وقلب الشابي لا يعرف الخوف ولا الانهزام لذلك يطالب بكل جرأة ومباشرة أن يوجهوا إليه حجارتهم الهدامة .

30– وإذا تمردت العواصف، وانتش بالهول قلب القبة الزرقاء

31– وأريتموني صائرا مترنما فوق الزاوبع في الفضاء النائى

---

[1] – المصدر نفسه،ص 257.

[2] – يوسف عطا الطريفي : أبو القاسم الشابي حياته وشعره ، ص 115

[3] – أبو القاسم الشابي:أغاني الحياة،ص 258.

32– فارموا على ظلي الحجارة واختفوا خوف الرياح الهوج والأنواء[1].

وإن كـان أعـداءه يحلـو لهـم أن تكـون أغـانيهم وتـرانيمهم هـي الشـتائم،ويروق لهـم المجاهرة بالعداء فإن الشابي لا يعرف إلى القول المتسامي،الذي يشع فيه مشاعره وعواطفه بقوة وحرارة كقوة الشمس،ويسبح فيه بالفضاء المتسع العالي الذي يحمله الشفق بحمرته التي تفيض بالحب والتضحيات.

34– وترنم – ما شئتم – بشتائمي وتجاهر ما شئتم بعدائي

35– أما أنا فأجيبكم من فوقكم والشمس والشفق الجميل إزائي

36– من جاش بالوحي المقدس قلبه لم يحتفل بحجارة الفلتاء[*] [2].

وقد أظهر الشابي في ختام قصيدته صموده،وعدم اكتراثه بالأعداء لأنهم لا يعرفون إلا لغة الاستبداد،وهم يقومون بأفعالهم دونما وعي أو فهم لحقيقة الوجود والحياة،وكل هذه الأفعال لن تفتر عزيمته ولن توقف حماسه وستأتي العاصفة لتأخذ في وجهها كل ما يعترضها فسيختفي المحتل ومن يسير في دربهم،ويعود الأمان في الوطن وسيكون الجواب من الشعب قاسيا وواضحا .

وقد جاءت خاتمة القصيدة قوية بعنوان الشابي وتحديه المستعمر والمستبد فالأبيات مليئة بإشارة التحدي عامرة بالإيمان الذي يتحدى الأوضاع المؤلمة[3].

خامسا: الشعب المستعبد

عانى الشابي مأساة شعبه تحت نير الاحتلال الفرنسي،وقد أوجع في نفسه ما يجري لشعبه من ظلم واستبداد،وما يعش فيه من تخلف وجهل [4].

---

[1] – أبو القاسم الشابي:أغاني الحياة،ص 258.

[*] – الفلتاء: هي المجانين في اللغة التونسية .

[2] – أبو القاسم الشابي:المصدر نفسه،ص 258

[3] – يوسف عطا الطريفي: أبو القاسم الشابي حياته وشعره ، ص 115 .

[4] – طلعت أبو الفرم:الرؤية الرومانسية للمصير الإنساني لدى الشاعر العربي الحديث، دار النهضة الهيئة المصرية للكتاب (ب، ط)، 1981 ، ص 310 .

لذا كان منددا بأشكال العبودية والاستبداد،داعيا إلى الحرية والكرامة،حاثا شعبه على الثورة والنهوض،فهذا الشعب تمثال بارد،تعبر عليه الأحداث والليل والنهار والفصول، بل التاريخ والزمن وهو شاخص في اللاشيء لا يريم[1].

فيمثل خموله الفاجع،بمن أحدقت به وحوش الأطماع،فلم يضطرب ولم يجف لها شاهدها تنهش لحمه فتألم كأنه لم يتألم، لم تثب به ثورة المتألم لم يخرجه الألم عن لا مبالاته، لم يقدح في عينه شرر الغضب والنقمة على الاستبداد،فهو ليس شعبا بل جيفة وهو إنما يزري به، ليمثل له هوانه وذله ويحفزه للثورة والنهوض إنه يضع عاره نصب عينه ويعقب على ذلك بتساؤل منصعق تخطى به الدهشة والتعجب إلى التنديد والهجاء3 :

يا إلهي، أما تحس، أما تشدو ؟
أما تشتكي أما تتكلم ؟.[2].

وهذا ما دفع الشابي إلى اللجوء إلى الغضب الصاخب،حتى تمنى تحطيم هذا الشعب انتقاما،وقد بنى ثورته وسخطه على الشعب الراضخ للاستبداد،لأنه شعب يكره النور قابع في الظلمة إنه كاهن الظلام :

أنت يا كهن الظلام، حياة تعبد الموت أنت روح شقي
كافر بالحياة والنور لا يصغي إلى الكون قلبه الحجري
مات فيه الزمان والكون إلا أمسه الغابر القديم القصي [3].

وهذا الشعب لا يدرك الحقائق،إنه كالطفل الصغير يلعب بالتراب وسط الظلام [4].

أيها الشعب أنت طفل صغير لاعب بالتراب والليل مغش
أنت في الكون قوة لم تمسها فكرة عبقرية ذات بأس
أنت في الكون قوة كبلتها ظلمات العصور من أمس أمس [5].

---

[1] – إيليا الحاوي: أبو القاسم الشابي شاعر الحياة والموت ، ص 150 .

[2] – أبو القاسم الشابي:أغاني الحياة،ص251.

[3] –أبو القاسم الشابي:أغاني الحياةص253.

[4] – يوسف عطا الطريفي: أبو القاسم الشابي حياته وشعره ، ص 118 .

[5] – أبو القاسم الشابي: أغاني الحياةص151.

لذا صرخ في الشعب في مقطوعة بعنوان " السيف أفضل إليه من تفزع " تعد من الجديد في شعره، الذي لم ينشر في ديوانه بطبعاته المختلفة، ونشرته مجلة الهداية في عددها الصادر في محرم/ 1424 مارس 2000 م حيث سمعها محمد الأخضر بن أحمد بن حسن الشابي (قريب الشابي) في مقر نادي عكاظ الأدبي،بالرحبة في سوق توزر .. وكان هدف الشابي من وراء ذلك إذكاء جذوة الوطنية،في نفوس الأطفال وإثارة حميتهم في هذه المرحلة المبكرة من حياتهم وتهيئتهم لساعة العسرة[1]. يقول فيها :

يا أيها الشعب التعيس إلى متى تلقى أمر الاضطهاد وتفزع ؟
وإلى متى تشكو وما من راحم يحنو لدى الشكوى وما من يسمع
أم أنت تأبى أن تجرد صارما ينأى لهزته الغريب ويهلع
والسيف أحجى ما يكون إذا مضى والسيف أفضل من إليه تفزع

لذا ينادى الشعب ويمعن في العتاب، لعل الشعب يستيقظ من غفلته الثقيلة فيدعوا إلى نبذ القيود والاستبداد – استبداد الشعوب – فالصخور تنشق أمام عزم الحياة ويظهر منه النبات الضعيف[2].

لا ينهض الشعب إلا حين يدفعه عزم الحياة إذا ما استيقظت فيه
والحب يخترق الغبراء مندفعا إلى السماء إذا هبت تناديه
والقيد يألفه الأموات ما لبثوا أما الحياة فيبلها وتبليه[3].

فالحياة لا تأتي ليائس أو ضعيف أو ميت، فهي لا تقبل الحلول فإما إقبال وإما فناء وشقاء، لذا دعا إلى كسر قيود الاستبداد،والأخذ بالجد والاجتهاد والمثابرة،في العمل والدأب للوصول إلى المقام،الذي يحقق للشعوب عزتها ومكانتها ومجدها[4].:

وللشعوب حياة حينا وحينا فناء
واليأس موت ولكن موت يثير الشقاء

---

[1] – علي الشابي:" الجديد في أشعار أبي القاسم الشابي وأخباره"، مجلة الهداية، العدد 6 ، 26 محرم 1423 ، الموافق لـ مارس 2000 ، ص 29.

[2] – يوسف عطا الطريفي: أبو القاسم الشابي حياته وشعره ، ص 117 .

[3] – أبو القاسم الشابي :أغاني الحياة ،ص193.

[4] – المرجع نفسه، ص 117.

والجد للشعب روح توحي إليه الهناء
فإن تولت تصدت حياته للبلاء [1]

فهو يطالب الشعب بالإرادة القوية الصادقة،التي يساندها الجد ويدفعها العزم لأن الليل مهما طال،فإن الفجر قادم منبلج[2].فمهما ساء واقع شعبه ورضخ للظلم والطغيان والاستبداد،فإنه يشعر بمسؤوليته الوطنية نحوه،فينطلق يرسم الطريق القويمة له يستحثه ويستثيره،ضد الظلم والطغيان والاستبداد،ولعل دراستنا لواقع استبداد الشعوب في شعر الشابي. لا تكتمل هي الأخرى إلا بتحليل نموذج متكامل من قصائده،وقد اخترنا لهذا الموضوع قصيدة البني المجهول،التي يصل فيها إلى قمة ثورته ومنتهى غضبه على الشعب. [3]

1- تحليل وشرح (قصيدة النبي المجهول، إرادة الحياة) :

أ- عرض أبيات القصيدة (النبي المجهول):

أيْها الشعبُ! ليتني كنتُ حطَّاباً فأهوي على الجذوعِ بفأسي
ليتَني كنتُ كالسيّولِ، إذا ما سالَتْ تهدُّ القبورَ رمْساً برمسِ
ليتَني كنتُ كالريّاح، فأطوي ورودُ الرَّبيع مِنْ كلِّ قنْس
ليتني كنتُ كالسّتاء، أُغَشِّي كل ما أَذْبَل الخريفُ بقرسي
ليتَ لي قوَّة العواصفِ، يا شعبي فأُلقي إليكَ ثَوْرة نفسي
ليت لي قوة الأعاصيرِ إن ضجَّتْ فأدعوك للحياة بنبسي
ليت لي قوة الأعاصيرِ لكْ أنتَ حيٌّ يقضي الحياة برمسِ
أنتَ روحٌ غَبِيَّة ، تكره النّور، وتقضي الدهور في ليل مَلْس
أنت لا تدركُ الحقائق إن طافتْ حواليكَ دون مسّ وجسِ
في صباح الحياة صَمَّخْتُ أكوابي وأترعتُها بخمرة نفسي
ثُمَّ قدَمْتُها إليكَ، فأهرقْتَ رحيقي، ودُستَ يا شعبُ كأسي
فتألَّمت.. ثُمَّ أسكتُّ آلامي، وكفكفتُ من شعوري وحسّي

---

[1] – أبو القاسم الشابي:أغاني الحياة،ص36.

[2] – يوسف عطاء الطريفي: أبو القاسم الشابي حياته وشعره ، 117.

[3] – كاظم حطيط: أعلام ورواد في الأدب العربي، مكتبة الدار العربية للكتاب، ط3 ، منقحة وموسعة ، (د، س)، ص 240.

ثُم نَضَّدْتُ من أزاهيرِ قلبي باقة لمْ يَمَسَّها أيُّ إِنْسِي
ثم قدّمْتُها إليكَ، فَمزَّقْتَ ورودي، ودُستَها أيَّ دوسِ
ثم ألبَسْتَني مِنَ الحُزْنِ ثوباً وبشوْك الجِبال توَّجتَ رأسي
إنني ذاهبٌ إلى الغابِ، ياشَعْبي لأقضي الحياة ، وحدي، بيأسي
إنني ذاهبٌ إلى الغابِ، علَّي في صميم الغابات أدفنُ بؤسي
ثُمَّ أنْسَاكَ ما استطعتُ، فما أنت بأهْلِ لخمرتي ولكَأسي
سوف أتلو على الطُّيور أناشيدي، وأُفضي لها بأشواق نَفْسي
فَهْي تدري معنى الحياة ، وتدري أنّ مجدَ النُّفوسِ يَقْظَة حِسِّ
ثم أقْضي هناك، في ظلمة الليل، وأُلقي إلى الوجود بيأسي
ثم تَحْتَ الصَّنَوْبَر، النَّاضر، الحلو، تَخُطُّ السُّيولُ حُفرة رمسي
وتظَلُّ الطيورُ تلغو على قبْرِي ويشدو النَّسيمُ فوقي بهمس
وتظَلُّ الفصولُ تمْشي حواليَّ، كما كُنَّ في غَضارَة أمْسي
أيّها الشّعبُ! أنتَ طفلٌ صغيرٌ، لاعبٌ بالتُّرابِ والليلُ مُغْسِ
أنتَ في الكَوْنِ قوَّة ، لم تَنسْسها فكرة ، عبقريَّة ، ذاتُ بأسِ
أنتَ في الكَوْنِ قوة ،كبَّلتْها ظُلُمَاتُ العُصور، مِنْ أمس أمسِ
والشقيُّ الشقيُّ من كان مثلي في حَسَاسِيَّتي، ورقَّة نفسي
هكذا قال شاعرٌ، ناولَ النَّاسَ رحيق الحياة في خير كأسِ
فأشاحُوا عنْها، ومرُّوا غِضابا واستخفُّوا به، وقالوا بيأس
قد أضاعَ الرشّادُ في ملعب الجِنّ فيا بؤسهُ، أصيب بمسّ
طالما خاطبَ العواصفَ في الليلِ ويَمْشي في نشوة المُتَحَسِّي
طالما رافقَ الظلامَ إلى الغاب ونادى الأرواحَ مِن كلِّ جِنْس
طالما حدَّثَ الشياطينَ في الوادي، وغنّى مع الرِّياح بجَرسِ
إنه ساحرٌ تعلَّمُه السحرَ الشياطينُ، كلَّ مطلع شمسْ
فكبعِدوا الكافرَ الخبيثَ عن الهيكلِ إنّ الخَبيثَ منبعُ رِجْسِ
أطردوه، ولا تُصيخوا إليه فهو روحٌ شريِّرة ، ذات نحْسِ
هَكَذا قَال شاعرٌ، فيلسوفٌ، عاشَ في شعبه الغبيِّ بتَعْسِ
جَهِلَ الناسُ روحَه، وأغانيها فساموُا شعورَه سومَ بخْسِ

فَهْوَ في مَذهبِ الحياة نبيٌّ وَهْوَ في شعبه مُصَابٌ بمسٍّ
هكذا قال، ثمّ سَار إلى الغابِ، ليَحْيا حياة شعرٍ وقُدْسِ
وبعيداً، هناك.. في معبد الغاب الذي لا يُظِلُّه أيُّ بُؤْسِ
في ظلال الصَّنوبرِ الحلوِ، والزّيتونِ يقْضي الحياة حرْساً بحرْسِ
في الصَّباح الجميل، يشدو مع الطّير، ويمْشي في نشوة المنحسِّي
نافخاً نايَه، حوالْيه تهتزُّ ورودُ الرّبيع منْ كلِّ فنسِ
شَعْرُه مُرْسَلٌ تداعُبه الرّيحُ على منكبْيه مثل الدُّمُقْسِ
والطُّيورُ الطِّرابُ تشدو حواليه وتلغو في الدَّوحِ، مِنْ كُلِّ جنسِ
وترا عند الأصيل، لدى الجدول، يرنو للطَّائرِ المتحسِّي
أو يغنِّي بين الصَّنوبرِ، أو يرنو إلى سُدْفَة الظَّلامِ الممسّي
فإذا أقْبَلَ الظلامُ، وأمستْ ظلماتُ الوجودِ في الأرض تُغسي
كان في كوخه الجميل، مقيما يَسْألُ الكونَ في خشوعٍ وَهَمْسِ
عن مصبِّ الحياة ، أينَ مَدَاهُ؟ وصميمِ الوجودِ، أيَّان يُرسي
وأريجِ الوُرودِ في كلِّ وادٍ ونَشيدِ الطُّيورِ، حين تمسِّي
وهزيمِ الرِّياح، في كلِّ فَجٍّ وَرُسُومِ الحياة من أمس أمسِ
وأغاني الرعاة أين يُواريها سُكونُ الفَضا، وأيَّان تُمْسي
هكذا يَصْرِفُ الحياة ، ويُفْني حَلَقات السنين: حَرسْاً بحرْسِ
يا لها من معيشة في صميم الغاب تُضْحي بين الطيور وُتْمْسي
!يا لها مِنْ معيشة ، لم تُدَنّسْهَا نفوسُ الورى بخُبْثٍ ورِجْسِ
يا لها من معيشة ، هيَ في الكون حياة غريبة ، ذاتُ قُدسِ[1].

[1] – أبو القاسم الشابي:أغاني الحياة،ص156.

ب- قراءة في مضمون القصيدة:

تقع قصيدة " النبي المجهول " في نحو اثنين وخمسين بيتا، وفيها يخاطب الشعب ويتمنى ولو كان حطابا ليقطع منه الجذوع اليابسة،أو كان سيلا يهدم القبور أو ريحا تودي بخانق زهرة الحياة، أو شتاء ليقذف ببقايا الخريف ليجلو أديم الأرض،ويتمنى أن يكون عاصفة توحي للشعب بالثورة،ويعدل من ثمة إلى هجاء الشعب،وإظهار مخاربه فيمثله بروح غبية تكره النور،لا يؤمن إلا بالحقائق الملموسة.

وفي المرحلة الثانية من التجربة يعتزل الشاعر الناس،إلى الغاب حيث يدفن بؤسه ويتناسى الشعب الجاحد،ويعود إلى مخاطبة الشعب،ويشبهه بطفل صغير لاه ويقول إنه لم ينهد إلى مثل أعلى،لأن ظلمات العصور استعبدته،ذاك كان حديث الشاعر الذي تهزأ به الشعب ونماه إلى الجنون،لأنه يخاطب العواصف والأموات في الليل،فهو ساحر ينقل ما تلقنه إياه الشياطين،وكافر خبيث تسكنه الأرواح الشريرة .

هذه القصيدة تمثل يأس الشاعر، من النهوض بالعالم وتغييره،في سبيل مثال أعلى يحقق به الإنسان غاية الحياة،من العبودية والاستبداد والظلم والتقاليد والخمول،يصنع مصيره ويقيم في عالم يبدعه على صورته ومثاله،ويأس الشاعر من إصلاح الوجود دفع به إلى أحضان الطبيعة بعد أن لاقى أفدح أنواع الاضطهاد،وألبس رداء الذل وكلل بالشوك. الشاعر هنا هو نبي الحقيقة المحذول،الذي تنتصر عليه قوى الشر والتخلف في العالم[1].

فلا خير في المجتمع،لأنه لم يحل أنشوطة الإنسان بنفسه وبحياته،بل أرهقها واستعبدها والطبيعة تعيد إليها حريتها وتخلصها من الضرورة والحاجة[2].

---

[1] – إيليا الحاوي : أبوا القاسم الشابي شاعر الحياة والموت، ص155– 156 .

[2] – إيليا الحاوي: أبوا القاسم الشابي شاعر الحياة والموت ، ص 156–157 .

ج- طرح أفكار قصيدة (النبي المجهول):

1- الأبيات من (1-7) تمني الثورة ضد الظلم والطغيان والاستبداد.

2- الأبيات من (8- 9) واقع الشعب المستسلم للاستبداد الراضع من ثدي الذل.

3- الأبيات من (10- 15) النبي المرذول .

4- الأبيات من (16- 24) اعتزال النبي ساح الحياة وعودته إلى الغاب.

5- الأبيات من (25- 28) مخاطبة الشعب الراضخ للاستبداد خطاب العتاب .

6- الأبيات من (29- 37) اتهام الشعب المستسلم للاستبداد الشاعر بالجنون .

7- الأبيات من (38- 42) جهل الشعب وإيثاره أصنام العبودية والاستغلال والاستبداد والجهل .

8- الأبيات من (43-52) اتحاده بالطبيعة أو الحلم الرومنسي .

د- الشرح والتحليل :

- الأبيات من (1-7) تمني الثورة ضد الظلم والطغيان والاستبداد. ولقد اكتشف الشابي نوعا من الاتحاد والمشاركة الحميمين،بين الطبيعة والإنسان في ثورته هذه،بل يشارك الطبيعة في عملها الدائم،الحياة والتجدد فالسيول لا تنهمر والريح لا تعصف والشتاء لا يخطف ويقصف والأعاصير لا تزمجر في حركة لا طائل من دونها،أو في عبث يدور على ذاته،بل إن هذه العناصر والمظاهر هي وسيلة الطبيعة للثورة على ذاتها تغتسل بها من أدرانها وأقذائها وتتجدد أو يصيبها الركود والموت.

وهكذا تراه يتمنى أن تكون له قوة الحطاب الذي يقطع الجذوع اليابسة،أي الميتة ومازالت منتصبة توهم بأنها قائمة حية،وهو إنما يهيب في ذلك بالشعب أن ينقض على الأحياء الموتى فيه، الذين تجمد فيهم يسع الحياة وتعطلت أداة النمو والتجدد،فيقطعهم أي يقضي عليهم لأنهم يعيقون سير الحياة التي تأبى " المبيت في منزل الأمس " . والثورة ليست غاية في ذاتها بالنسبة إلى الشابي وهي ليست وسيلة لإجهاض الحقد والإباءة بالثأر والوتر وإنما هي واسطة، للإبقاء على حيوية الحياة واندفاعها وتقدمها .

وكما تمنى أن يكون حطابا،يتمنى كذلك أن يكون كالسيول التي تهدم الرموس وهي هنا المنازل التي يقطنها قوم لا يتعدلون ولا يتبدلون،لا يتخلون عن إرث قديم ولا يبدعون تراثا جديدا، يحبون أو يحصون في الأحياء دون مساهمته منهم في الحياة،وقد تكون الرموس أيضا،المؤسسات التي أقامها الإنسان وجعل يتعبد فيها للتقليد والعرف أو يحني هامته خلالها للجمود الذي هو رمس من تلك الرموس،لأنها عدالة القوي المستبد في الاقتصاص من الضعيف .

وقد تكون الدولة التي تحمي ذاتهامن كل عقاب،والدين الذي افتقد جوهره وتحول إلى نقيض،إذا يتواطأ أربابه مع الأغنياء والأقوياء المستبدين،على الفقراء والضعفاء أو الذي اقتصرت غايته على حماية ذاته ومكاسبه،وقد تكون المدارس والمعاهد والكتب والكتاب، وكل أمر آخر جمد وتكرس،ولم يعد يتنفس بنفس الحياة التي لا تقيم،قط على حالة واحدة.

ويتمنى كذلك أن يكون كالريح والإعصار والشتاء،وهي جميعا مظاهر متعددة لغاية موحدة هي إزالة ما علق في الطبيعة من مظاهر القبح والموت،والجمود فالشتاء يغسل ثوب الربيع أو أنه يفصله ويعده بكتمان،إنه حالة من التوثب الذي يحتضن الثورة ويعدلها[1].

– الأبيات من (8– 9) : واقع الشعب المستسلم للاستبداد،الراضع من ثدي الذل.

ومن الأمنية الخائبة، يتحول الشاعر إلى الغضب والهجاء،فيمثل هوان الشعب المستسلم للاستبداد، بحي ينفق عمره في رمس التقاليد،بل إنه كروح الغباء تؤثر الظلمة على النور ولم ترى يكره ذلك الشعب النور ويؤثر الظلمة؟

ذلك لأن النور فضاح كشاف،تطفر من دونه معالم العار،فيما يخفي الظلام معالمها فلا يبصر عاره بأم عينه ولا يقره أو يجهر به.

ومن مظاهر الغباء في الشعب أنه لا يفهم إلا ما يبذل لحواسه،وإنسان الحواس متخلف وإنسان العقل والقلب هو المنفعل والفاعل،وهو الذي يصنع الحضارة ويتخذ المواقف، التي يصمد بها لدواعي السلامة والكسل والخمول،الحواس المقتصرة غايتها على ذاتها هي ارتهان وعبودية والشاعر إذ يصرح معاني الوجود الخفية ويشق عنها غلافها إنما يبين للشعب أنه يركن إلى أوهام يتخذها مكان الحقائق[2].

– الأبيات من (10–15) البنـي المرذول : وعندما تكشفت للشابي الحقائق الخفية، وحل في غيب الحياة إعترنه مثل سورة النبوءة، فبدا كأولياء العهد القديم الذين نزلت عليهم نعمة المعرفة،يؤدونها للناس فيرذلونها ويضطهدون أصحابها، وليس ثمة تباين في ذهن الشابي بين الشاعر والنبي أي بين الجمال والخير،وإنما هما متحدان متآلفان فيه، تنزل عليه الفكرة بأبدع حلة جمالية،وفي مستهل المقطع يذكر " صباح الحياة " موحدا بين الطبيعة والحياة،موجبا بأنه كان صامد العزم والإرادة في مطلع عمره،وقبل أن يخبر حياة الناس وواقع البشر،أما الآن فإنه اجتاز تلك المرحلة وسعت به الشؤون،فتكشف له ما كان يجهله،واختبر واعتبر وحل في نفسه القنوط واليأس وما تراه بذل للناس؟ لقد قدم لهم خمرة روحه،أي الإلهام الذي خص به لينقل إليهم الحقائق وسبل الخير،سكب لهم في أجمل كوب، كوب الشعر والوحي فإذا هم يزورون ويرتدون عليه لينكلوا به .

---

[1] – إيليا الحاوي:أبو القاسم الشابي ،شاعر الحياة والموت، ص 163–164–165 .

[2] – إيليا الحاوي : أبو القاسم الشابي ،شاعر الحياة والموت ، ص 165.167 .

والنزعة النبوية تتسلل في ضمير القصيدة،عبر المواقف والعواصف،فالنبي لا يجزع لذاته بل للآخرين،لا يضام بالأذى لأن المحبة في نفسه هي الأقوى،والصمت هو المحبة يخنق الألم ويقتل الشعور،لأن الألم هو وعي للذات وطلب للرضا والراحة،المتألم لذاته لا تزال نفسه الفردية صامدة معاندة،أما الذي يميت ألامه ويغفر للآخرين فذاك هو الذي ذاب فيهم وتبدد بهم، المحبة هي التي تميت الذات وتزيل الحدود،وقد كان حريا بالشاعر أن يتألم، لكنه خنق ألمه وعاد وبدأ من جديد،جمع أزاهير قلبه البكر وقدمها للشعب المستعبد فداسها وعفرها، وزهور القلب كخمرة النفس، مستعارة من الحقيقة الصوفية التي انهمرت منها هذه التجربة الشعرية وإيحائيتها،لا حد لها لأن الروح لا تحد وفي نهاية المقطع، يبدو الشاعر كالمسيح المكلل بإكليل الشوك،على جلجلة الألم والفداء وإذا كان الشعر المعاصر يفخر بحلوله في ضمير التاريخ والأسطورة والذهول، فإن الشابي تقدم عليه في ذلك ومثل الفداء في ذروة مضمونه وشكله،إذا اتحد بالمسيح الحامل خطايا العالم والسافح دماءه تكفيرا عنها[1].

– الأبيات من (16– 24) اعتزال النبي ساح الحياة ويعود إلى الغاب: يعتزل النبي ساح الحياة ويعود إلى الغاب،والعودة إلى الغاب هي محاولة للتطهر من أدران المجتمع الراضخ للاستبداد،ناسيا هذا الشعب ومرارة العيش بين ظهرانيه وهو يحاول أن ينساه ما استطاع، باثا في النسيان معنى المجاهدة معاندة والأرض،ولقد انفصم وجدان الشاعر وانشق بعضه يحن إلى الشعب المستعبد والبعض الآخر يعتزله،الأول يدفعه إلى السقوط والثاني إلى النهوض والتكامل،والمعارضة قائمة أبدا في ذهنه بين المجتمع الشر والطبيعة الخير،الطير هو الرفيق والأليف إذ تعز صحبة الأحياء .

وما يلحق ذلك من أبيات، تتثال فيه العاطفة الرومنسية إنثيالها في مشاهد غايتها في ذاتها كالقبر القائم تحت أشجار الصنوبر،والذي تغنية الطير،هنا عاد الشعر شعرا مترنحا بسكرة العاطفة بالوجدانية الخالصة،بالأوهام والأحلام التي لولاها لأطبق جدار العالم على الرومنسي واختنق تحت صخرته[2].

---

[1] – إيليا الحاوي : أبوا القاسم الشابي شاعر الحياة والموت، ص 168–169–180–181 .

[2] – إيليا الحاوي : أبوا القاسم الشابي شاعر الحياة والموت ، ص 171– 173 .

– الأبيات من (25–28) مخاطبة الشعب الراضخ للاستبداد خطاب العتاب: في هذا المقطع يخاطب الشعب الراضخ للاستبداد،خطاب العتاب مظهرا له غروره وجهله للقوة المتفوقة الكامنة فيه،لأنه افتقد عبقرية المعرفة والعبارة،ورسف في قيود التاريخ والتقليد، والشاعر وحده يدرك المأساة لأن نفسه هي مرآة لعصره وشعبه .

الشاعر وحده يهتدي إلى الحقيقة،إلى الفاجعة والشعب يتنكر لها وهدايته تعزله وتحيطه بالغربة،في قوم يعدون إلى مصالحهم وكسب رزقهم،وينصرفون إلى التناسل الغبي والانسياق في مجرى الزمان،والشاعر وحده يواجه الألم ويدرك هول المصير،لذا يتمنى خلاص الشعب من الاستبداد وإيقاظ ضميره البليد. [1]

– الأبيات من (29–37) اتهام الشعب المستسلم للاستبداد الشاعر بالجنون: اتهام الشعب المستسلم للاستبداد الشاعر بالجنون،ذلك أن هذا الشعب كما أسلف الشابي لا يقبل إلا بما وقع عليه حسه،والعواطف لا تقع تحت الحواس ولا وجود حسيا لها لذلك تراهم ينسبون من يخاطبها إلى الجنون،حدودهم حدود المألوف والمتعارف عليه وهو ينعى على الشعب ماديته الكثيفة المطبقة،ويدعوه إلى أن ينفذ في منافذ الروح كي يعثر على الخلاص والحرية،ثم إن الشاعر يخاطب"الأموات من غير رمس"وعهد الناس أن الموتى يدفنون في قبورهم، قبورهم وإنهم لا يخطبون ولا يخاطبون فكيف يخاطبهم الشاعر دون أن يكون مصابا بمس؟ .

الشعب يحيا في قبر كبير هو المجتمع كل من تعطل فيه الإبداع ورضخ للاستبداد هو ميت، الناس يعتقدون أن الميت هو من افتقد حركة الجسد، والشاعر يجد أنه كل من افتقد حركة الروح والفكر،هم يرونه مجنونا وهو يراهم حمقى،أغبياء راضخين للاستبداد بل موتى في قبور الراحة[2].

– الأبيات من (38–42) جهل الشعب وإثارة أصنام العبودية والاستغلال والاستبداد والجهل: وهكذا تولدت الغربة وتراكمت في ذات الشاعر،وأبرم في نفسه الشقاء هو شاعر غريب منبوذ مطرود،لأنه يقدس الحقيقة ويتعبد في محرابها،والشعب يؤثر أصنام العبودية والاستغلال والاستبداد والجهل،بني السعادة والحقيقة ومجنون في الناس لا سبيل له إلى إخماد جذوة نفسه

---

[1] – إيليا الحاوي: أبوا القاسم الشابي شاعر الحياة والموت ، ص 173– 174 .

[2] – إيليا الحاوي : أبوا القاسم الشابي شاعر الحياة والموت ، ص 174–175 .

ودفع الشعب عن لا مبالاته صامدا في موقفه ويقينه،لا يتنازل ولا يساوم أو يحاني،لا يؤثر الربح والجاه وتجارة المنافع والكسب الغبي،الشاعر هو الشهيد الصامت يصلب على جلجلة الحقيقة،أو أنه يعتزل ولا يتنازل لأن الحقيقة معزولة موطؤة. [1]

– الأبيـات مـن (43–52) اتحـاده بالطبيعـة أو الحلـم الرومنسـي: وفـي المقطـع الأخير يتحقق الحلم، وليس في صور هذا المقطع رؤيا ما ورائية،ولا تجسيدا مكثفا لأطياف النفس،وإنما قيمتها في تمثيل الحلم الرومنسي البهي الإنسان العائد إلى فردوسه،الخالع عنه أسمال الوجود وطينته،عاد إلى حال البراءة الأولى لا تنكده مطامع ولا تميل به أهواء،إنه الإنسان الذي دار دورة الحياة والحضارة والتاريخ وعاد إلى نقطة البداية،إلى أصله الروحي متحررا من الضرورات الاجتماعية منهمرا في أحضان الطبيعة.[2]

---

[1] – إيليا الحاوي : أبوا القاسم الشابي، شاعر الحياة والموت ، ص 175–176 .

[2] – إيليا الحاوي : أبوا القاسم الشابي، شاعر الحياة والموت ، ص 176–188 .

هـ- عرض أبيات القصيدة (إرادة الحياة):

إذا الشّعْبُ يَوْمَاً أرَادَ الْحَيَـاةَ فَلا بُدَّ أنْ يَسْتَجِيبَ القَـدَر
وَلا بُـدَّ لِلَّيْلِ أنْ يَنْجَلِـي وَلا بُدَّ للقَيْدِ أَنْ يَـنْكَسِـر
وَمَنْ لَمْ يُعَانِقْهُ شَوْقُ الْحَيَـاةِ تَبَخَّـرَ في جَوِّهَـا وَانْدَثَـر
فَوَيْلٌ لِمَنْ لَمْ تَشُقْـهُ الْحَيَاةُ مِنْ صَفْعَـةِ العَـدَم المُنْتَصِر
كَذلِكَ قَالَـتْ لِـيَ الكَائِنَاتُ وَحَدّثَنـي رُوحُـهَا المُسْتَتِر
وَدَمدَمَتِ الرِّيحُ بَيْنَ الفِجَاجِ وَفَوْقَ الجِبَال وَتَحْتَ الشَّجَر
إذَا مَا طَمَحْـتُ إلِـى غَـايَةٍ رَكِبْتُ الْمُنَى وَنَسِيتُ الحَذَر
وَلَمْ أَتَجَنَّبْ وُعُـورَ الشِّعَـابِ وَلا كُبَّـةَ اللَّهَـبِ المُسْتَعِـر
وَمَنْ لا يُحِبّ صُعُودَ الجِبَـالِ يَعِشْ أَبَدَ الدَّهْرِ بَيْنَ الحُفَر
فَعَجَّتْ بِقَلْبِي دِمَاءُ الشَّبَـابِ وَضَجَّتْ بِصَدْرِي رِيَاحٌ أُخَر
وَأَطْرَقْتُ ، أُصْغِي لِقَصْفِ الرُّعُودِ وَعَزْفِ الرِّيَاح وَوَقْعِ المَطَـر
وَقَالَتْ لِيَ الأَرْضُ - لَمَّا سَأَلْتُ : " أَيَـا أُمُّ هَلْ تَكْرَهِينَ البَشَر؟"
"أُبَارِكُ في النَّاسِ أَهْلَ الطُّمُوحِ وَمَنْ يَسْتَلِـذُّ رُكُوبَ الخَطَـر
وأَلْعَنُ مَنْ لا يُمَاشِي الزَّمَـانَ وَيَقْنَعُ بِالعَيْـشِ عَيْشِ الحَجَر
هُوَ الكَوْنُ حَيٌّ ، يُحِـبُّ الحَيَاةَ وَيَحْتَقِرُ الْمَيْتَ مَهْمَا كَـبُر
فَلا الأُفْقُ يَحْضُنُ مَيْتَ الطُّيُورِ وَلا النَّحْلُ يَلْثِمُ مَيْتَ الزَّهَـر
وَلَـوْلا أُمُومَةُ قَلْبِي الرَّؤُوم لَمَا ضَمَّتِ المَيْتَ تِلْكَ الحُفَر
فَوَيْلٌ لِمَنْ لَمْ تَشُقْـهُ الحَيَـاةُ مِنْ لَعْنَةِ العَـدَمِ المُنْتَصِـر!"
وفي لَيْلَةٍ مِنْ لَيَالِي الخَرِيفِ مُثَقَّلَـةٍ بِالأَسَـى وَالضَّجَـر
سَكِرْتُ بِهَا مِنْ ضِياءِ النُّجُومِ وَغَنَّيْتُ لِلْحُزْنِ حَتَّى سَكِـر
سَأَلْتُ الدُّجَى: هَلْ تُعِيدُ الْحَيَاةُ لِمَا أَذْبَلَتْـهُ رَبِيعَ العُمُـر؟
فَلَمْ تَتَكَلَّمْ شِفَـاهُ الظَّلامِ وَلَمْ تَتَرَنَّـمْ عَذَارَى السَّحَر
وَقَالَ لِيَ الْغَـابُ في رِقَّـةٍ مُحَبَّبَـةٍ مِثْلَ خَفْقِ الْوَتَـر
يَجِيءُ الشِّتَاءُ ، شِتَاءُ الضَّبَابِ شِتَاءُ الثُّلُوجِ ، شِتَاءُ الْمَطَـر
فَيَنْطَفِىء السِّحْرُ ، سِحْرُ الغُصُونِ وَسِحْرُ الزُّهُورِ وَسِحْرُ الثَّمَر
وَسِحْرُ الْمَسَاءِ الشَّجِيِّ الوَدِيعِ وَسِحْرُ الْمُرُوجِ الشَّهِيّ العَطِر

وَتَهْوِي الْغُصُونُ وَأَوْرَاقُـهَا وَأَزْهَـارُ عَهْدٍ حَبِيبٍ نَضِـر
وَتَلْهُو بِهَا الرِّيحُ في كُلِّ وَادٍ وَيَدْفنُـهَا السَّيْـلُ أَنَّى عَـبَر
وَيَفْنَى الجَمِيعُ كَحُلْمٍ بَدِيـعٍ تَأَلَّقَ في مُهْجَـةٍ وَانْدَثَـر
وَتَبْقَى البُـذُورُ التي حُمِّلَـتْ ذَخِيـرَةَ عُمْرٍ جَمِـيلٍ غَـبَر
وَذِكْرَى فُصُولٍ ، وَرُؤْيَا حَيَاةٍ وَأَشْبَاح دُنْيَا تَلاشَتْ زُمَـر
مُعَانِقَـةً وَهْيَ تَحْـتَ الضَّبَابِ وَتَحْتَ الثُّلُوجِ وَتَحْـتَ الْمَدَر
لَطِيفَ الحَيَـاةِ الذي لا يُمَـلُّ وَقَلْبَ الرَّبِيعِ الشَّذِيِّ الخَضِر
وَحَالِمَـةً بِأَغَـانِـي الطُّيُـورِ وَعِطْرِ الزُّهُورِ وَطَعْمِ الثَّمَـر
وَمَا هُـوَ إِلاَّ كَخَفْقِ الجَنَاحِ حَتَّـى نَمَا شَوْقُـهَا وَانْتَصَـر

فصدّعت الأرض من فوقـها وأبصرت الكون عذب الصور
وجـاءَ الربيـعُ بأنغامـه وأحلامـهِ وصِبـاهُ العطِـر
وقبلّـها قبـلاً في الشفـاه تعيد الشباب الذي قد غبـر

وقالَ لَهَا : قد مُنحـتِ الحياةَ وخُلّدتِ في نسلكِ الْمُدّخـر
وباركـكِ النـورُ فاستقبـلي شبابَ الحياةِ وخصبَ العُمر
ومن تعبـدُ النـورَ أحلامـهُ يباركهُ النـورُ أنّـى ظَهر
إليك الفضاء ، إليك الضيـاء إليك الثرى الحالِمِ الْمُزْدَهِر
إليك الجمال الذي لا يبيـد إليك الوجود الرحيب النضر
فميدي كما شئتِ فوق الحقول بِحلو الثمار وغـض الزهـر
وناجي النسيم وناجي الغيـوم وناجي النجوم وناجي القمـر
وناجـي الحيـاة وأشواقـها وفتنـة هذا الوجـود الأغـر
وشف الدجى عن جمال عميقٍ يشب الخيـال ويذكي الفكر
ومُدَّ عَلَى الْكَوْنِ سِحْرٌ غَرِيبٌ يُصَـرِّفُهُ سَـاحِـرٌ مُقْتَدِر
وَضَاءَتْ شُمُوعُ النُّجُومِ الوِضَاء وَضَاعَ البَخُورُ ، بَخُورُ الزَّهَر
وَرَفْرَفَ رُوحٌ غَرِيبُ الجَمَالِ بِأَجْنِحَـةٍ مِنْ ضِيَاءِ الْقَمَـر
وَرَنَّ نَشِيدُ الْحَيَاةِ الْمُقَدَّسِ فِي هَيْكَلٍ حَالِمٍ قَدْ سُـحِر
وَأَعْلَنَ في الْكَوْنِ أَنَّ الطُّمُوحَ لَهِيبُ الْحَيَـاةِ وَرُوحُ الظَّفَر
إِذَا طَمَحَتْ لِلْحَيَاةِ النُّفُوسُ فَلا بُدَّ أَنْ يَسْتَجِيبَ الْقَدَرْ[1].

[1] – أبو القاسم الشابي:أغاني الحياة،ص240.

و- قراءة في مضمون القصيدة:

تتألف القصيدة من ثلاثة وستين بيتا، وتتضمن سبع أفكار رئيسية،وقد نظمها الشابي حين كان الشعب التونسي يرزح تحت استبداد الاحتلال الفرنسي،مما أوجع الشاعر أن يرى شعبه مستسلما لقدره، فنهض يحث شعبه على تحطيم قيود الاحتلال والاستبداد،وبين أن الحياة تتمثل في إرادة الشعب وما يريده،لأن المحتل ليس قدرا على الوطن،والثورة عليه واجب لتحرير تونس من قيود المحتل واستبداده وظلمه[1].وقد استهل الشاعر هذه القصيدة بإيمانه بإرادة الشعب المبددة لكل ليل والمحطمة لكل قيد[2].

يباشر الشاعر موضوعه مباشرة بالقول، إن القدر يستجيب لكل شعب يريد الحياة أي يريد الكرامة، فيكسر عنه قيد العبودية والاستبداد،ويقشع ظلام البؤس،فمن لم يكافح ويبذل في سبيل الحياة هلك واندثر،تلك هي سنة الكائنات في الوجود،فالريح المنبثة من قلب الأودية والفجاج،كأنما توحي للإنسان بأن النجاح لا يتم إلا بالمغامرة،أو يبقى المرء أبد الدهر مرميا على حضيض الذل والاستبداد والهوان،وكذلك فإن الأرض حدثته وأطلعته على ضميرها، فإذ هي تؤثر الطموحين، المغامرين الذين يماشون الزعماء ويسابقونه، ولا يقيمون كالجماد على واقعهم في الكون،يتحرك الطير جناحها يخفق والأزهر يعانق النحل ما دام يمتص الرحيق فإذا ماتت الطير والنحل وقعته واندثرت،أو تبددت فمن لا يهرع إلى الحياة تخلت عنه للزوال والعدم .

كما يتحرى الشاعر عن أمر الأحياء،الذين يزيلهم ويأتي عليهم الزمن،فيسأل الليل الساجي، فلا يجيبه ويصمت السحر كذلك،إلا أن الغاب خاطبه بعبارته المحببة الرقيقة بالقول، إن الشتاء يفد فتعرى الغصون من أوراقها ،إلا الجذور فإنها تبقى في رحم الأرض، تعانق شوق الحياة وتحلم بالربيع الجديد،ويمر الزمان وأحداثه الكثيرة فإذا أحلام البذور تتحقق،فتنبت من أحشاء الأرض،وتكتسي الربيع النضر يوسعها في الفضاء الرحب والضياء الجميل وإذ هي ترفل وتنعم بأحلامها[3].

---

[1] – يوسف عطا الطريفي: أبو القاسم الشابي حياته وشعره، ص 108 .

[2] – كاظم حطيط: أعلام ورواد في الأدب العربي، مكتبة الدار العربية للكتاب، ط3 ، منقحة وموسعة (د،س) ، ص 240 .

[3] –إيليا الحاوي : أبوا القاسم الشابي شاعر الحياة والموت، ص 182–183 .

ز- طرح أفكار قصيدة (إرادة الحياة):

1- الأبيـــات مـــن (1-5): يوضـح الشـاعر فيهـا حتميـة انتصـار الإرادة الحـرة وتحطيمها أصنام العبودية والاستغلال والاستبداد، مهما واجهتها من تحديات، ومصدر هذه الفكرة الأحداث التي عاصرها الشاعر .

2- الأبيـات مـن (6-11): يجري الشاعر حوارا بينـه وبين الريح، وهو صراع من أجل البقاء، ويؤكد بأن الأماني لا تتحقق إلا بالعمل والجهد .

3- الأبيـات مـن (12-18): يحاور فيها الشاعر الأرض، التـي تؤكد وقوفها مع الأقوياء وأصحاب الإرادة والعزيمة القوية، وأنها تحتقر الضعفاء .

4- الأبيات من (19-34) : يؤكد الشاعر أن الطبيعة ترفض الضعفاء المستسلمين للاستبداد، ولا تكترث بما يحل بهم، من ويلات وأن الحياة متجددة عبر البذور .

5- **الأبيات من (35-44) :**يصور الشاعر أحاسيسه حول مسيرة الكون ويؤكد أنه لا شيء أجمل من الحياة الحرة الكريمة .

6- الأبيـات مـن (45-56): يناجي الشاعر الطبيعة ويحاورها، ويبين ما في الكون من سحر وجمال، متأثر بجمال وطنه،منبها الشعب التونسي إلى سر هذا الجمال والذي يستحق منه صحوة ،تقاوم استبداد المحتل ونيل الاستقلال .

7- الأبيـات مـن (57-63): الطلب من الشعب التمسك بحقه،وطموحاته المقدسة لتحقيق الهدف الكبير، بكسر قيود الاستبداد ونيل الحرية والاستقلال،عن طريق الدم الذي هو أهون من الذل، في ظل الاحتلال[1].

---

[1] – يوسف عطا الطريفي:أبو القاسم الشابي حياته وشعره ، ص 113 .

ح- شرح وتحليل:

- الأبيـات مـن (1-5): حتميـة انتصـار الإرادة الحرة،وتحطيمهـا أصـنام العبوديـة والاستغلال والاستبداد .

يستشـف الشـاعر فـي مطلـع القصـيدة حقيقـة الشـعوب المكبلـة بـأغلال الاحـتلال المتـوحش المسـتبد، فيـرى فـي انطـلاق إرادتهـا الحـرة، القـدر ذاتـه وجـلاء العبوديـة وتـداعي سجونها الغاشمة[1].

وهذا لا يصدر إلا عن حكمة وشاعرية وإيمان،وانفعال بالواقع الذي يعانيه الشاعر ومعه كل أفراد وطنه،ليوضح بأن إرادة الحياة هي من إرادة الشعب،فإذا كانت هذه الإرادة قوية فيها إصرار على تحطيم القيود،فلا يكون أمام القدر إلا أن يستجيب لقوة إرادة الشعب، وإذ كان ظلام الليل يغشي هذه الإرادة في زمن ما،فلابد أن يبزغ الفجر ويزيل هذه الظلمة، لتتكسر قوة المحتل المستبد أمام إرادة الشعب[2].

وهو يعارض بين إرادة الحياة وإرادة القدر،رادا ردا شعريا نفسيا،على الذين يعتقدون بأن الإنسان مسير بقدره لا حرية له إزاءه،والشاعر يعلن أن مصير الإنسان بيده إذ ما عزم وصمد،فإن الحياة تخضع له وتواتيه،فالشعب المستعبد المهزوم تكون عبوديته وهزيمته بنفسه ومدى صمودها،وهو لا ينتصر بالسلاح،ولا يزعج المستعمر عنه بالعنف الطائش، بل الإرادة والرفض،فالبطولة هي في النفس وليست في الساعد أو الحديد والنار وهذه المقاومة النفسية بالإرادة والعزيمة قد تدعه يعبر بالآلام والمحن،لكنها في النهاية تنتصر انتصارا حتميا، فينقشع ليل البؤس الذي يعانيه الشعب ،وتسقط عنه القيود ويستعيد كرامته، فإرادة الحياة والكرامة لا تقاوم[3].

ويعود الشابي إلى التنويه " بشوق الحياة " فالشعوب التي يقتصر همها على العيش الميسور تتبخر ولم يعد لها وجود وأما المنتصرون فهم الذين يعانقون شوق الحياة [4].

---

[1] - كاظم حطيط: أعلام ورواد في الأدب العربي، ص 241 .

[2] - يوسف عطا الطريفي: أبو القاسم الشابي حياته وشعره، ص 109- 110 .

[3] - إيليا الحاوي : أبوا القاسم الشابي شاعر الحياة والموت، ص 185-186 .

[4] - يوسف عطا الطريفي: مرجع سابق، ص 109-110 .

– الأبيات من (6–11): يجري الشاعر حوارا بينه وبين الريح،وهو صراع من أجل البقاء ،ويؤكد بأن الأماني لا تتحقق إلا بالعمل والجهد،يستنطق الشاعر الريح ويتبين عبرها جفاء الطريق، لكل شعب مستعبد،حيث لا تتردد هذه الريح المجازية في بلوغ الغايات العظيمة،وما الحياة إلى الانطلاق إلى القمم[1].

ليبين أن من يطمح إلى تحقيق غاية فعلية،عليه أن يكون مثل تلك الرياح، فلابد له أن يغامر وأن يخلع الحذر من نفسه .

ويخلص الشابي من ذلك إلى القول،بأن من لا يحتذي حذو الريح ويتعرض للمصاعب، فإنه قد لا يموت لكنه يحيا في قاع الذل والمهانة،في حفرة الحياة لا يعانق الذرى، ولا ينسم الحرية والكرامة،والشعوب العظيمة لا يعدوا تاريخها أن يكون تاريخ الآلام الكثيرة والكفاح الدامي الحثيث، أما الشعوب الصغيرة المصير،فإن المحن تصيبها فتضعفها وتفتقد عزمها ونخوتها،فتتعفر حياته أبناءها تحت نعال الأقوياء المستبدين[2]. وجاء انهمار المطر التي تحمل في ثناياها السيول القوية لتدفعه إلى الثورة على الواقع المؤلم من أجل الخلاص من المحتل المستبد ونيل الحرية لتصبح الحياة أجمل[3].

– الأبيات من (12–18): يحاور فيها الشاعر الأرض، التي تؤكد وقوفها مع الأقوياء وأصحاب الإرادة والعزيمة القوية،وأنها تحتقر الضعفاء،ويستنطق الشاعر الأرض التي هي أم البشر،فإذا بها تؤثر من أبناءها أصحاب الطموح،الذين لا يستسلمون ولا يحنون الرقاب،وفي الوقت نفسه تلعن الخانعين،الذين هم ليسوا من أبناء الحياة لأنهم قاعدون مكتفون بالقليل من العيش،ولذلك فقد قدمت النصيحة لأبنائها من البشر بأن يغامروا وأن يناضلوا، وإلا فالهلاك والويل لمن لم يغامر ولم يناضل،في سبيل حياة فضلي والويل لمن يضعف أمام الاستبداد،وتقلبات الدهر ولم يعارض أو يحتج[4].

– الأبيات من (19–34): تأكيد الشاعر أن الطبيعة ترفض الضعفاء المستسلمين للاستبداد،ولا تكترث بما يحل بهم من ويلات،وأن الحياة متجددة عبر البذور .

---

(1) – كاظم حطيط: أعلام ورواد في الأدب العربي ، ص 242 .

(2) – إيليا الحاوي : أبوا القاسم الشابي شاعر الحياة والموت، ص 185–186 .

(3) – يوسف عطا الطريفي : أبو القاسم الشابي حياته وشعره، ص 110 .

(4) – يوسف عطا الطريفي : أبو القاسم الشابي حياته وشعره ، ص 110–111 .

ويتحرى الشاعر في الليل يستطلعه ويستنطقه،إذ الليل هو رمز لاختلاف الزمن وتطوره،والشابي إذ يسأل الليل ومن خلاله الزمن،ويبتغي من ذلك أن يعبر عن الحيرة واليأس من دوامة الأشياء،ومن الهرم الذي يصيب ويعتري كل شيء،فهو لم يعثر على جواب لحيرته في الليل[1]. فيتولى الغاب الإجابة نيابة عن الدجى،فيقول يأتي الشتاء ومعه الضباب،وتأتي الثلوج ويأتي المطر فيزول السحر،سحر الغصون،وسحر الزهور،ثم سحر الثمار الناضجة، فزال عنها جمالها،فهوت الغصون،وتبعثرت الأزهار فتلاعبت بها الريح ونقلتها من واد إلى آخر،وغشيها السيل فساقها معه وأصبحت كالحلم،فزال جمالها بعد أن تألق فترة من الزمن. لكن جذورها بقيت في البذرة تحت التراب، ليدرك الشاعر أن التغير الذي يحزنه لا ينال منه إلى القشور،أما جوهر الأشياء فباقية مهما حصل من تغير والجذور تبقى في رحم التراب،التي تكمن فيه الحياة ثم تولد من جديد لتعيد سرتها،عبر تتابع الفصول وينمي الشابي رومانسيته فتنموا معها الجذور في أحوال متنقلة مع أحوال البشر في الأحلام الذاتية والذكريات فإذا كانت البذور تحلم بجمال الفصول،وروعة الحياة وتغيرها الذي يبعد السأم،وهي تتذكر الغيوم في الأفق كما يتذكر الأليف أليفة، فالأولى بالإنسان أن يتذكر وأن يحلم بجمال الحياة،فمن أعماق التراب ومن تحت الضباب والثلوج والمطر وقساوة الشتاء،تظهر الحياة ويأتي الربيع بجماله،وشذا عطر أزهاره واخضرار المروج فيه[2].

– الأبيات من (35–44): تصوير الشاعر أحاسيسه حول مسيرة الكون،ويؤكد أنه لا شيء أجمل من الحياة الحرة الكريمة .

وحتى يوضح الشاعر تطور الزمن وتغيره،يرمز إلى ما ينتاب المرء من ظروف الزمان،الذي يسير بصحبة الظروف والمصاعب،والمشاق الكبيرة،ولا تكاد تزول واحدة حتى تعقبها أخرى ومع ذلك فالأمل باق وشهوة الحياة لا تنقرض، بل تظهر أحداث جديدة يسطرها تاريخ الكون،فتنمو وتتجدد وتعانق أضواء الصباح،موشحة بغموض السحر .

ويجار الرائي حينها!أهو حلم أم حقيقة؟أم هي أحلام يقظة؟فيسأل أين الضباب الذي كان في الصباح ؟ وأين جدول الماء بسحره الخلاب؟بل وأين ضوء القمر في الليالي الهادئة

---

[1] – إيليا الحاوي : أبوا القاسم الشابي شاعر الحياة والموت، ص 190–191 .

[2] – يوسف عطا الطريفي : أبو القاسم الشابي حياته وشعره، ص 111 .

؟ ثم تتابع التساؤلات عن أسراب الفراش بألوانه الشفافة الزاهية،وعن النحل بطنينه وعن الغيوم وهي تمر وعن الكائنات،ليأتي التساؤل الكبير عن الحياة،الحياة التي كان ينتظرها[1].

لقد عادت إلى أحضان الربيع،بعد أن قبلها قبلة الحياة،أي مسها بما يبعث فيها الحيوية،أي من يناجي الحرية تقبل عليه،وتنتشله من ظلمة التراب والبؤس والعذاب[2].

– الأبيات من (45–56): يناجي الشاعر الطبيعة ويحاورها،ويبين ما في الكون من سحر وجمال متأثر بجمال وطنه،منبها الشعب التونسي إلى سر هذا الجمال،والذي يستحق منه صحوة،تقاوم استبداد المحل ونيل الاستقلال .

لقد عادت شمس الربيع الحانية،رقيقة لا تؤذي الكائنات التي صبرت على برد الشتاء،لأنها انتظرت معانقة الربيع الجميل الوديع،ومن أجل ذلك جاء رد الطبيعة للربيع أنها اشتاقت إلى النور إلى الحرية. فالمرء الذي يعبد النور ويحبه،فإن النور يباركه أينما وجد.[3]

ليستجلي الشاعر منطلق تحقيق المصير في الطبيعة،أو بالأحرى في الحياة الإنسانية المتجددة،وليس ذلك إلا هبة الإرادة القوية العنيدة،والعزيمة الصلبة والطموح الواثق القادر المؤمن بمقاومة الاستبداد ونيل الاستقلال[4].

– الأبيات من (57–63): الطلب من الشعب التمسك بحقه،وطموحاته المقدسة لتحقيق الهدف الكبير بكسر قيود الاستبداد ونيل الحرية والاستقلال،عن طريق الدم الذي هو أهون من الذل في ظل الاحتلال،ليعلن في عليائه أن الحياة هي للطموح القوي الذي يتحمل ويصبر،لينال في النهاية حريته وكرامته،وهكذا يستجيب القدر لإرادة الأقوياء الذين يناجون الحرية،فتلبي طلبهم وتقبل عليهم من رحم البؤس والعذاب لأن النفوس الطامحة للحياة الكريمة لابد أن يستجيب لها القدر[5].

---

(1) – يوسف عطا الطريفي : أبو القاسم الشابي حياته وشعره ، ص 113 .

(2) – إيليا الحاوي : أبوا القاسم الشابي شاعر الحياة والموت، ص 192 .

(3) – يوسف عطا الطريفي: أبو القاسم الشابي حياته وشعره ، ص 112 .

(4) – كاظم حطيط : أعلام ورواد في الأدب العربي ، ص 246 .

(5) – يوسف عطا الطريفي : أبو القاسم الشابي حياته وشعره، ص 112– 113 .

لأن إرادة الشعب أكبر من كل استعمار أو طغيان،ومن كل عائق أو حاجز في الطريق ومن كل ألوان الذل والاستعباد والاستبداد،والاستسلام المهين أو التنازل عن كرامة الحياة الحرة .

وإن هذه القصيدة،تجسد نموذجا بارزا ومتميزا في الشعر العربي المعاصر،وفي الشعر العالمي والإنساني، وهي نشيد الأحرار والشعوب المناضلة،في سبيل تحريرها وانعتاقها من أسر الاحتلال، وقيود الجمود والاستعباد على اختلافها[1].

[1] – كاظم حطيط : أعلام ورواد في الأدب العربي، ص 246– 248.

ط- الطبائع الفنية للقصيدتين :

رأينا أن الشابي كان سوداوي المزاج،قانطا من الرجاء والسعادة، وقد تطبع شعره بطبائع نفسية فنية، واغترف من معين الانفعالات، الذي كان يفيض فيها،ملونا العالم بألوانه الزاهية أو القاتمة، مبدعا أجواء خاصة شيع فيها جنازة العالم،وخلع عليها أكفان الحداد ونعى أبنائه زوالهم ودعاهم إلى معانقة الموت المنقذ والمحرر،وعبر ذلك حث الإنسان أن يفعل أفعاله بفعله،أن يحيا وفقا لاقتناعه،وأن يتحرر ويتجدد مجاريا الطبيعة في تغيرها وتجددها،وفي هذا الموضوع تراه من دعاة الثورة والتمرد ضد الاستبداد،إلا أنه يصدر في ذلك عن بواعث روحية صوفية،لأن غاية الثورة ليست النقمة أو الثأر أو العنف، وإنما هي محاولة شاملة في النفس والوجود،للاتصال بالحرية ومعانقتها،فتجتريه باطنية داخلية والبعد السياسي مطمور ومغمور بالأبعاد الروحية،ونزعة الخلاص من عبودية الحس والعقل والمادة، فضلا عن عبودية الناس،ولعله تفطن إلى أن السياسة هي نتيجة، وأن العبودية السياسية هي حصيلة لعبودية النفس بذاتها،واستسلامها لأقدار الحياة وحدود التقاليد، وأن الإرادة،فجر الروح إذ يشرق يبدد كل ما دونه،ليكون خطابه أداة للمشاركة الصحيحة في الحضارة الإنسانية،وإيقاظ الأمة العربية وبعثها،وزادا إنسانيا لا يخلو من ومضات رائعة،تخاطب الإنسان في أفقه الشامل[1].

---

[1] – إيليا الحاوي: أبو القاسم الشابي، شاعر الحياة والموت، ص 207– 208 ،.

سادسا: خطاب الحرية

إن الحرية من أسمى الحقوق الإنسانية،التي وهبها الله لجميع البشر على طوال الدهر،فقد جبلت النفوس على النفور من القيود، ومقاومة التكبيل والتضييق، على الفكر والرأي والموقف،فالحرية صنو الحياة،فإذا ما غرقت في أعماق التسلط والقهر،والكبت والاستبداد صرخ الإنسان وتمرد واستغاث رغبة في استرداد ذلك الحق المسلوب[1].ولقد تفطن الشابي إلى أن الحرية تشكل جوهر الإنسان،ووجوده في كل زمان ومكان،لذا كان الشابي من أبرز الشعراء المعاصرين، الذين بحثوا عن الحرية بصورها المتعددة السياسية والاجتماعية والوطنية فترنما في أشعاره طلبا لحضورها،وسمت نفسه إلى أفاقها[2]،وتأرقا وسهر لضياعها،ولوقوعها أسيرة في زنازين الطغاة والمستبدين،لذا صرخ بأعلى صوته مؤكدا أن الحرية طريقها النضال، تنزع ولا تمنح،في قصائده التي تلتهب حماسة وثورة[3]. ذلك أن السعي إلى الحرية والمجد يلزمه عطر الطموح الملتهب،رغبة في الانتصار فالأفق لا يحضن ميت الطموح،والنحل لا يلثم ميت الزهور، ومن لا يحب صعود الجبال يعش أبد الدهر بين الحفر. نشر رسالته هذه[4].لأن الحرية تهزأ بالقيود والقضبان وتهزأ بكل القوى المستبدة لأنها إرادة وتصميم، ومتى صمم الإنسان على نيلها فلن تقف في طريق انطلاقته نحو تحقيقها أي موانع[5].

إنه موقف صارم محدد، اتخذه الشابي فكرا وفلسفة وموقفا، لا يحيد عنه أبدا حتى إن معظم مواقفه الإنسانية التي صاغها شعرا، تصب في هذا القالب – الحرية – فقد كانت نفسه حرة أبية، تعشق الحرية وتكثر من الهتاف بها وتدعوا العبيد أن يثوروا لكرامتهم والمستعبدين إلى أن يرفعوا رؤوسهم إلى السماء[6].

---

(1) – حامد عبد السلام زهران: أسس الصحة النفسية، عالم الكتب، ط2 ، عام 1978 ، القاهرة، مصر ، ص 23 .

(2) – هاني الخير: أبو القاسم الشابي، شاعر الحياة والخلود، دار فلاتس للنشر والتوزيع، المدية، الجزائر، ط1 ،2008 ، ص 31 .

(3) – عبد الله ركيبي: الشعر في ومن الحرية، دار الكتاب العربي، للطباعة والنشر والتوزيع، القبة الجزائر، 2009 ، ص 100 .

(4) – نسيب شاوي : مدخل إلى دراسة المدارس الأدبية في الشعر العربي المعاصر، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، 1984 ، ص 283 .

(5) – مفيد قمحة: الاتجاه الانساني في الشعر العربي المعاصر، ص 192 ، 198.

(6) – محمد عبد المنعم خفاجي وآخرون: الشابي ومدرسة أبولو، المؤسسة العربية التونسية، ط1 ، 1986 م، ص 174.

قائمة المصادر والمراجع

أولا: القرآن الكريم

ثانيا: الدواوين

01- أبو القاسم الشابي: ديوان أغاني الحياة، الدار التونسية للنشر،1920.

02- أبو القاسم الشابي:الديوان، دراسة وتعليق أحمد محمد عبد الهادي، مكتبة الأدب، القاهرة، 2006 .

03- أبو القاسم الشابي:الديوان، تقديم وشرح راجي الأسمر، دار الكتاب العربي، بيروت، ط 2، 1415 هـ – 1994 م.

ثالثا: الموسوعات والمعاجم

04- معجم اللغة العربية: المعجم الوسيط، أخرجه إبراهيم مصطفى وآخرون، دار الدعوة، استانبول، 1989 م .

05- سعد علوش: معجم المصطلحات الأدبية المعاصرة، الدار البيضاء، عام 1985 م.

06- معجم اللغة العربية: معجم ألفاظ القرآن الكريم، الهيئة العامة لشؤون المطابع الأميرية، القاهرة، 1996 م، المجلد2 .

07- جميل صليبا: المعجم الفلسفي بالألفاظ العربية والفرنسية والإنجليزية واللاتينية، ج1 الشركة العالمية للكتاب، بيروت، 1994 .

08- المنجد في اللغة العربية المعاصرة، بيروت، دار المشرق، عام 2000 م.

09- عباس صادق: موسوعة أمراء الشعر العربي، دار أسامة للنشر والتوزيع، الأردن، ط1 ، 2002 .

10- موسوعة أنكارتا، أقراص ممغنطة، تحميل 2006 .

11- الموسوعة الفلسفية العربية، معهد الإنماء العربي، مج 1 ، بيروت ، 1986 .

12- ابن منظور: لسان العرب، طبعة دار الجيل ودار لسان العرب، بيروت، عام 1988، مجلد2.

رابعا: المصادر والمراجع

13 - إبراهيم خليل: مدخل لدراسة الشعر العربي الحديث، دار المسيرة للنشر والتوزيع، عمان، الأردن، ط 2، 2007.

14- ابن جني: الخصائص، تحقيق محمد لي النجار الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة 1999 م، ط4 ،ج1.

15- أبو القاسم الشابي: الخيال الشعري عند العرب، الدار التونسية للنشر، ط2، 1983.

16 - أبو القاسم محمد كرو: الشابي حياته وشعره منشورات، دار مكتبة الحياة، ط 2، 1960.

17 - أبو القاسم محمد كرو: دراسات عن الشابي، دار المغرب العربي، تونس (د، س).

18- إتحاد كتاب المغرب العربي: طرائق تحليل السرد الأدبي، سلسلة ملفات، ط1،1992.

19 - أحمد محمد عبد الهادي: ديوان أبي القاسم الشابي، دراسة وتعليق: أغاني الحياة وقصائد أخرى، مكتبة الأدب، القاهرة، 2006 .

20- أحمد مداس: لسانيات النص نحو منهج لتحليل الخطاب الشعري، جدار للكتاب العالمي، عمان الأردن، 2007 .

21- أرسطو طاليس: الخطابة، ترجمة عبد الرحمن بدوي، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة، عام 1983 .

22 - الأسلوب والأسلوبية: الدار العربية للكتاب، ط2 ،1982 .

23- إميل يعقوب: قاموس المصطلحات اللغوية والأدبية، دار العلم للملايين، بيروت، عام 1987 ، مادة (خطب) .

24 - أبو بكر محمد بن الطيب بن محمد، إعجاز القرآن تحقيق السيد أحمد صخر، دار المعارف (بدون تاريخ).

25- التهاوني: كشاف اصطلاحات الفنون، تحقيق لطفي عبد البديع، الهيئة العامة للكتاب، القاهرة ، 1972 ، ج2 .

26- جابر عصفور: البنيوية من ليفي شتراوس إلى فوكو،دار الأفاق العربية، بغداد، 1985.

27- حامد زهران: الصحة النفسية والعلاج النفسي، عامل الكتب للقاهرة، ط 2، 2007م .

28- حامد عبد السلام زهران: علم النفس الاجتماعي، عالم الكتب،القاهرة،ط2،2003 م.

29- حامد عبد السلام زهران: أسس الصحة النفسية، عالم الكتب، ط2، مصر .1978.

30- الخطاب: دراسة أكاديمية محكة تعني بالدراسات والبحوث العلمية في اللغة والأدب ، دار الأمل للطباعة والنشر والتوزيع، العدد 2 ، 2007 .

31- خليفة محمد التلسي: الشابي وجبران، الدار العربية للكتاب، ط1 ، 1978 .

32- ديان مكدونيل: مقدمة في نظريات الخطاب ترجمة وتقديم: عز الدين إسماعيل، المكتبة الأكاديمية، القاهرة، 2001 م .

33- رابح كحلوش: الخطاب دورته أكاديمية محكمة تعنى بالدراسات والبحوث العلمية في اللغة والأدب، دار الأمل للطباعة والنشر والتوزيع، الجزائر تيزي وزو، العدد3، (د س).

34- رجاء النقاش: أبو القاسم الشابي شاعر الحب والثورة، دار المريخ للنشر، السعودية، (د، ط) 1988.

35 - روبرت شولتر: السيماء والتأويل ترجمة سعيد الغانمي، المركز الثقافي، بيروت، 1993 .

36- ريمون صحان: الألسنية العربية، دار الكتاب اللبناني، بيروت، 1981م، ط2 .

37 - الزمخشري الكشاف: دار الكتاب العربي ، بيروت ، 1978 ، ج 4 .

38 - زين العابدين السنوسي: أبو القاسم الشابي حياته وأدبه، تونس 1386 ه –1956 م .

39- سارة مليز:الخطاب، ترجمة: يوسف بغول، منشورات مخبر الترجمة في الأدب واللسانيات، جامعة منتوري، قسنطينة، مطبعة البعث قسنطينة، 2004 .

40-سعيد يقطين: تحليل الخطاب الروائي، المركز الثقافي العربي، بيروت، 989 ،ط1.

41- السيد ولد أباه: التاريخ والحقيقة لدى ميشيل فوكو، الدار العربية للعلوم، بيروت، 2004 م، ط2 .

42- السيد يسين: بحثا عن هوية جديدة للعلوم الاجتماعية في الوطن العربي، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، 1986 .

43- سيف الدين الأمدي:الإحكام في أصول الإحكام، دار الكتب العلمية، بيروت، 1980،ج1.

44- سيف الدين الأمدي: المبين في شرح ألفاظ الحكماء والمتكلمين، تحقيق عبد الأمير الأعسم، بغداد 1985 .

45- سيف الدين الأمدي: منتهى السول في علم الأصول، الجمعية العلمية الأزهرية المصرية، القاهرة ، ج 1 .

46- شوقي ضيف: دراسات في الشعر العربي المعاصر، دار المعارف، مصر، مكتب الدراسات الأدبية، ط8، (د، س).

47- صبري محمد موسى ومحمد فايز: تفسير أساس البيان، كلمات ومعاني القرآن الكريم، بيروت – لبنان، ط 1 ، 2005 م .

48- صلاح يوسف عبد القادر: في العروض والإيقاع في الشعر العربي، دراسة تحليلية تطبيقية، الأيام للطباعة والنشر والتوزيع و الترجمة، الجزائر، القبة، ط1، 1997 .

49- صلاح فضل: بلاغة الخطاب وعلم النص، سلسلة عالم المعرفة.

50- طلعت أبو العزم: الرؤية الرومانسية للمصير الإنساني لدى الشاعر العربي الحديث، دار النهضة الهيئة المصرية للكتاب، د ط ، 1981.

51 - طلعت أبو الفرم:الرؤية الرومانسية للمصير الإنساني لدى الشاعر العربي الحديث، دار النهضة الهيئة المصرية للكتاب (ب، ط)، 1981 .

52- طه عبد الرحمن: اللسان والميزان، طبعة المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، 1998 .

53- عباس بن يحيى: مسار الشعر العربي الحديث والمعاصر، دار الهدى للطباعة والنشر والتوزيع، 2004.

54- عبد الرحمن الكواكبي: طبائع الاستبداد ومصارع الاستعباد تقديم الدكتور أسعد السحمراني، دار النفائس، بيروت لبنان،ط3 ، 2006 م.

55- عبد الستاد جواد : اللغة الإعلامية، دراسة في صناعة النصوص الإعلامية وتحليلها، منشورات دار الهلال للترجمة، عمان، 1988 .

56- عبد السلام المسدي : الأسلوبية والأسلوب، الدار العربية للكتاب، ليبيا، 1997 .

57- عبد السلام المسدي: قراءة مع الشابي والمتنبي والجاحظ، دار سعاد الصباح للطباعة والنشر، القاهرة، ط4، 1993.

58- عبد القادر شرشار: تحليل الخطاب الأدبي وقضايا النص، منشورات اتحاد كتاب العرب، دمشق، 2006 .

59- عبد الله إبراهيم : الثقافة العربية والمرجعيات المستعارة، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، سنة 1999 م، ط1 .

60- عبد الله إبراهيم: السردية العربية، المركز الثقافي العربي، لبنان، 1992 .

61- عبد الله ركيبي: الشعر في ومن الحرية، دار الكتاب العربي، للطباعة والنشر والتوزيع، القبة الجزائر ، 2009 .

62- عبد المجيد الحر: الأعلام من الأدباء والشعراء، أبو القاسم الشابي، دار الكتب العلمية، لبنان، ط 1 ، 1995 .

63- عبد الهادي بن ظافر الشهري: استراتيجيات الخطاب مقاربة لغوية تداولية، دار الكتاب الجديد المتحدة ، بيروت، 2004 م ،ط1 .

64- علي بن محمد الجرحاني: التعريفات، مكتبة لبنان بيروت، عام 1978، مادة كلام.

65- فايز الداية: علم الدلالة العربي، النظرية والتطبيق، دراسة تاريخية تأصلية، نقدية، دار الفكر، دمشق ، 1996 م ، ط1 .

66- فخري أحمد حسن طمليلة: أبو القاسم الشابي دراسة في حياته وأدبه، جامعة الأزهر، كلية اللغة العربية، الدراسات العليا، الأدب والنقد (ط ، بدون)، 973 ، 1974.

67- فرديناند دي سوسير: دروس في الألسنية العامة، ترجمة صالح القرماوي وآخرين، الدار العربية للكتاب، ليبيا، تونس، 1985 .

68 - كاظم حطيط: أعلام ورواد في الأدب العربي، مكتبة الدار العربية للكتاب، ط3 ، منقحة وموسعة ، (د، س).

69- محمد الأخضر الصحي : مدخل إلى علم النص ومجالات تطبيقية ، الدار العربية للعلوم، منشورات الاختلاف ، ط1 ، 2008 .

70- محمد الماكري : الشكل والخطاب، المركز الثقافي العربي ، بيروت ، 1991 م .

71- محمد سعد فشوان: مدرسة أبولوا الشعرية في ضوء النقد الحديث، مكتبة الدراسات، دار المعارف، (د س).

72- محمد عابد الجابري: الخطاب العربي المعاصر، دار الطليعة، بيروت، 1982 م.

73- محمد عبد المنعم خفاجي وآخرون: الشابي ومدرسة أبولو، المؤسسة العربية التونسية، ط1 ، 1986 م.

74- محمد فريد غازي: أبي القاسم الشابي من خلال يومياته، الدار التونسية للنشر (ط بدون)، 1983 .

75 - مصطفى عبد اللطيف السحرتي: الشعر المعاصر في صور النقد الحديث، مطبوعات نهامة، ط2 ، 1984 م .

76 - مصطفى ناصف : اللغة والتفسير والتواصل، سلسلة عالم المعرفة 1995 .

77 - مفيد قمحة: الاتجاه الإنساني في الشعر العربي المعاصر، دار الآفاق الجديدة، ط 1 1981 م.

78- ميشيل فوكو: حفريات المعرفة، ترجمة، سالم يفوت، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، 1987 م .

79 - نسيب شاوي : مدخل إلى دراسة المدارس الأدبية في الشعر العربي المعاصر، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، 1984 .

80- نعمان أحمد فؤاد: شعب وشاعر، أبو القاسم الشابي، الدار العربية للكتاب، ليبيا، تونس، ط 2 ، 1977 م .

81 - نواري سعودي، أبو زيد: في تداولية الخطاب الأدبي، المبادئ والإجراءات، بيت الحكمة للنشر والتوزيع، ط1 ، 2009 .

82- نور الدين السد :الأسلوبية وتحليل الخطاب دراسة في النقد العربي الحديث - تحليل الخطاب الشعري والسردي، ج2 ، دار هومة للطباعة والنشر والتوزيع، الجزائر، 1997.

83- هاني الخير: أبو القاسم الشابي، شاعر الحياة والخلود، دار فلاتس للنشر والتوزيع، المدية، الجزائر، ط1 ،2008 .

84 - يوسف عطا الطريفي: شعراء أعلام، أبو القاسم الشابي حياته وشعره ، مكتبة لبنان بيروت ، ط 1 ، 2009 .

خامسا: المراجع باللغة الأجنبية

85- Essie de linguistique ,editionde , 1970 paris 88

86-JEAN GAUNE : esthétique de la communication (que sais – je) . puf , 1 er édition , 1997.

87 -JEAN LOHISSE : la communication , de la transimissiona la 5 er relation , édition de boechunniversité , & er édition , 2001.

سادسا: والمجلات

88- مجلة الهداية، العدد 6 ، محرم 1423 ، الموافق لـ مارس 2000 .

89- المجلة العربية، ربيع الثاني 1408 ديسمبر 1998 .

90- مجلة الفكر، طبع الشركة التونسية لفنون الرسم، العدد 4 جانفي1985.

مقدمـــــــة:

يعـد الشـعر النتـاج الأول للثقافـة العربيـة، والتعبيـر الأكثـر دلالـة، والأكثـر تمثـيلا لأصـالتها وعبقريتها وحضارتها الإنسانية، كما أن لـه حاضر ثقافي كبير لايقل عن ماضيها المجيد، ينتظر من يصبر أغواره ويكشف فرائده ويغوص بين دفات كتبه،ينقب عما ينهض بهذا الـلإرث من جميع نواحيه، التاريخية، والثقافية، واللإجتماعية، وحتى السياسية خاصة الأدبية منها، لأن الأمة العربية تواجه التحدي، فلا بد للأدب أن ينهض بدوره فى توعية أبناء الأمـة ،يصـور الواقـع ،بـل ينفـذ فيـه ليكشـف عـن مكـامن الـداء،ينير العقـول ويصـف الدواء،ويغـذي العاطفـة ويهـدي إلـى الـدرب ،بتفجيـر قضـايا الأمـة فـى مكنوناتهـا التـرابطيـة بـالمجتمع والحيـاة، وهـذه مهمـة الشـعراء الصـادقون الـذين ظلـوا دائمـا أوفيـاء للكلمـة الحـرة المسؤلة، حينمـا عبـروا بصـدق ورؤى عـن معانـاة الشـعوب العربـة، وفنـون اسـتبدادها ويعـد الشاعر التونسي أبو القاسم الشابي من الشعراء العرب المبرزين، في السعر العربي الحديث، الـذي حـارب فـي خطابـه الشـعري الخافت فـى قصـائد الحـب الثـائر فـى قصـائد الوطنيـة كـل أشكال وفنون الاستبداد،مثيرا في الأمة العربية روح التحدي ينشد فيها الحرية والاستقلال.

قي تلك القصائد التي دعا فيها قومه، للأخذ بأسباب القوة، لأن الحياة لا تنقاد لهم إلا إذا تحـررت فيهم الإرادة، وشـحذوا العزم ،ثم فـى قصـائده تلـك التـي دعـا فيهـا المجتمـع إلـى تحريـر الشخصـية العربيـة مـن رواسـب الماضـي وأغـلال الحاضـر، التـي تقيـد انطلاقتهـا الحضـارية .ثم تلـك القصـائد التـي جـاهر فيهـا المسـتعمر عداه، وأنـذرهم بالويـل والثبـور مـن صـحوة الشـعوب، وحـول خطـاب الاسـتبداد هذا، فـي شـعر أبـو القاسـم الشـابي يـدور موضـوع بحثي، وقد اخترت دراسة هذا الخطاب – خطاب الاستبداد– لأنني أرى فيه.

1– بعدا فلسفيا وصوتا باحثا عن الحقيقة، صوتا ثائرا علـى أشكال الظلم والحرمان، داعيـا إلـى كسـر قيـود الاسـتبداد، منطلقـا مـن الواقـع لأمتـه، داعيـا إلـى الاتصـال بالحيـاة فـى أوسع معانيها معبرا عن البؤس الإنساني فى الوطن العربي، داعيا إلى اليقظة والتحرر.

2– كما أن اختيار ديوان "أغاني الحياة "لأبي القاسم الشابي ليس اعتباطيا بل لكونـه أول شاعر تونسي أثار الحداثة في القصيدة العربية في تونس .

3– عمـق التجربـة ودرجـة الإكتمـال الفنـي عنـد هذا الشـاعر الشـاب علـى الـرغم مـن قصر فترة إبداعه.

4- كونه يشكل صرخة أدبية إهتزت لها أركان الوسط الأدبي و الثقافي التونسي إمتد صداها حتى المشرق العربي.

5 – كون الشابي ظاهرة أدبية تستحق الإلتفات والدراسة فهو نقطة إستدلال مميزة في تاريخ الشعر التونسي الحديث والمعاصر.

6- إلى جانب محاولة الإسهام في إثراء أدب وثقافة المغرب العربي.

وبإجراء هذا البحث صادفتني الإشكالية التالية ما تجليات الإستبداد في خطاب الشابي؟ وسأحاول في مذكرتي هذه الإجابة على هته الإشكالية، ولكي تكون دراستي لهذا الموضوع خاضعة لمنهجية علمية، فإن المنهج المترسم لهذا البحث هو المنهج التحليلي ولقد قسمت بحثي هذا إلى مقدمة وفصل تمهيدي بعنوان أبو القاسم الشابي وعالمه الإبداعي، محاولتا الإلمام في هذا الفصل ببعض الجوانب، من حياة أبو القاسم الشابي وأثاره الأدبية، التي تجاوز صداها تونس إلى الشرق العربي والعالم.

كما قمت فى الفصل الأول بضبط مفاهيم الخطاب والاستبداد، وذلك بالتطرق إلى مفهوم الخطاب لغة، واصطلاحا، كما وقد عرجت على مفهوم الخطاب عند الغرب القدامى والمحدثين، كذلك عند العرب القدامى والمحدثين، وقدمت مفهوما لغوي للاستبداد كما قدمت مفهوما للإستبداد فى اصطلاح السياسيين،أما الفصل الثاني قمت فيه بدراسة تجليات الاستبداد في خطاب الشابي من خلال تقديم نماذج من ديوانه ومن خلال تحليل بعض القصائد من ديوان أغاني الحياة، ثم اختتمت بحثي هذا بخاتمة فيها حوصلة سريعة للنتائج التي توصلت إليها، في الأخير قدمت قائمة للمصادر والمراجع التي اعتمدتها.

أما الصدر الأساسي الذي استندت عليه لإنجاز هذا العمل فهي أعمال أبي القاسم الشابي الكاملة منها الشعرية المتمثلة في "ديوان أغاني الحياة"وهو محل الدراسة والأعمال النثرية "الخيال الشعري عند العرب" الرسائل والمذكرات، هذا واعتمد البحث على مصادر عربية تراثية قديمة إلى جانب المراجع العربية الحديثة.

أما من جهة المادة العلمية فقد واجهتنى صعوبات فى جمعها، وطريقة تنظيمها وإعداد خطة تحويها، لتسهيل فهمها،كما واجهتنى صعوبات قلة المراجع، وعدم التنسيق بين المادة العلمية، لكن بمشيئة الخالق عز وجل تخطيت هذه الصعوبات،وتم تجاوزها بكل عزم وكذلك بتشجيع من الأستاذ المشرف جزاه الله خيرا.

وفى الأخير نتمنى أن نكون قد وفقنا فى عملنا هذا وساهمنا في وضع لبنة جديدة لمكتبتنا، ولو بالشيء القليل.

خاصين بالشكر والعرفان الأستاذ المشرف مجناح جمال الذي لم يبخل علينا بنصائحه القيمة التي وجهتنا الوجهة الصحيحة إلى أخر كلمة فى هذا البحث، ورحم الله أبو القاسم الشابي الذي أتحف المكتبة العربة بتحف نوادر لايزال فيها صوته مدويا مؤثرا فى مسمع الدنيا ولاتزال كتب الأدب تشيد بهذا التراث الإنساني الذي لاينضب.

الجمهورية الجزائرية الديمقراطية الشعبية
وزارة التعليم العالي والبحث العلمي
جامعة المسيلة
كلية الآداب واللغات
قسم اللغة والأدب العربي

العنوان:

خطاب الإستبداد في شعر الشابي

- ديوان أغاني الحياة أنموذجا دراسة تحليلية -

مذكرة مقـــدمة لنيل شهادة الماستـــــر

فـــــرع:
أدب عـــربي

تخصص:
أدب حديث

إعـــداد الطـــالبة:
♦ بورزق عفـــــاف

إشراف الأستاذ:
♦ د. مجناح جمـــال

السنة الجامعية: 2012- 2013

إهداء

إلى الملاك الطاهر ذي القلب الكبير، التي منحها الله أسمى الدرجات ،وأوصى على طاعتها سيد الأنبياء وحث على الإحسان إليها حتى الفناء، صاحبة القلب الحنون، والصدر الرؤوم الذي ينبض في كل لحظة بالحب والرحمة الذي أسرني بنبع الحنان ،وعلمني سبل العطاء، إلى التي قاسمتني المواجع والظنون، وخدمتني ورعتني طول السنون، إلى من روحي بروحها لم تزل متصلة وكان إسمها أول ما نطقت به شفتاي ،لأنها مجد الروح، وبهجة الحياة ونور العين

أمي ثم أمي ثم أمي رشيدة

إلى من شرفني بسمه قبل ثقته ،وثقته قبل عطائه ، وجهد لأجل إحقاقي أمنيتى ، أبي العزيزالنذير.

إلى من غرس فى قوة العزيمة، وعلمني عدم الخظوع والاستسلام، إلى من زرع فى روحي حب الجد والعمل الدؤوب، وكان نعم المعين عند الحاجة،إليك خالي عطاء الله العمري كلي إنحناءة وقورة.

إلى من سقاني الأمل والصفاء، إلى من وساني فى الألم وزودني بالأمل، إلى من هم لي درعا ،وغطاء وسترا إلى أعز وأروع أخوة أفتخر بهم منير، إبتسام، دلولة، إيمان، علي ،لست أنساكم، فكيف أنسى محبا ليس بنسائي.

إلى زهراتي اللاتي، يملأن البيت بهجة وسرور بنات أختى،خديجة، إسراء، ألاء.

إلى أخوتي الواتى سهل لقائهن، ويعز فراقهن، حرشة زينب ،حاج عتو نور الإيمان ، بولعراس بهية،قرساس سارة ، عريوة سعاد .

إلى كل من ترك ذكرى طيبة فى نفسي.

إلى كل من عرفهم قلبي ،ونسيهم قلمي.

إلى كل من ساعدني، فى إنجاز هدا العمل،

أهدي ثمرة جهدي المتواضع .

عفاف

B

فهرس الموضوعات

العنـــــــــــــــوان	الصفحة
مقدمة.....	أ
الفصل التمهيدي : أبو القاسم الشابي وعالمه الإبداعي	
أولا : حياته ثقافته أثاره الأدبية.....	**05**
1- حياته.....	**05**
2- ثقافته.....	**07**
3- أثاره الأدبية.....	**07**
ثانيا: صدى الشابي فى الشرق العربي	**09**
ثالثا: صدى الشابي فى العالم.....	**10**
الفصل الأول: ضبط مفاهيم الخطاب والاستبداد	
أولا : مفهوم الخطاب	**12**
1- لغة	**12**
2- اصطلاحا	**14**
ثانيا: عند الغرب القدامى والمحدثين	**17**
ثالثا: عند العرب القدامى والمحدثين.....	**22**
رابعا: مفهوم الاستبداد.....	**27**
1- لغة.....	**27**
2- الاستبداد في اصطلاح السياسيين	**27**
خامسا: من هو المستبد؟.....	**27**
الفصل الثاني: تجليات الاستبداد في خطاب الشابي ديوان أغاني الحياة أنموذجا دراسة تحليلية	
أولا: القدر والمرض.....	**30**
ثانيا: الموقف من تقاليد المجتمع.....	**34**
ثالثا: المرأة وتحريرها من عبودية الزمن وأدران الجسد	**44**
1 - تحليل نموذج (صلوات فى هيكل الحب)	**53**
أ- عرض أبيات القصيدة	**53**

ب- قراءة في مضمون القصيدة 56
ج - طرح أفكار القصيدة 57
د- شرح وتحليل القصيدة 58
هـ- الطبائع الفنية 66
رابعا: استبداد المستعمر 67
1 - تحليل نموذج (نشيد الجبار) 76
أ- عرض أبيات القصيدة 76
ب- قراءة في مضمون القصيدة 78
ج- طرح أفكار القصيدة..... 79
د- شرح وتحليل 80
خامسا: الشعب المستعبد 85
1- تحليل نموذج (النبي المجهول ، إرادة الحياة)..... 87
أ- عرض أبيات القصيدة 87
ب- قراءة في مضمون القصيدة 90
ج - طرح أفكار القصيدة 91
د- شرح وتحليل 92
هـ- عرض أبيات قصيدة إرادة الحياة 97
و- قراءة في مضمون القصيدة 99
ز- طرح أفكار القصيدة 100
ح- شرح وتحليل..... 101
ط- الطبائع الفنية للقصيدة 106
سادسا: خطاب الحرية 100
خاتمة..... 108
قائمة المصادر والمراجع

خاتمـــــــــة:

هكذا نصل إلى خاتمة هذا البحث المتواضع، لنضمنها أهم النتائج التي يمكن استخلاصها من خلال دراستنا لخطاب الإستبداد فى شعر الشابي .

1- خطاب الاستبداد هذا أداة للمشاركة الصحيحة، في الحضارة الإنسانية و إيقاظ الأمة العربية وبعثها ،وزادا إنسانيا لا يخلوا من ومضات رائعة تخاطب الإنسان فى أفقه الشامل.

2- كما حمل رسالة واعية صحيحة اتخذ منها قضية حياة ،ذلك أن الشابي شخصية غنية سخية ،تنطلق من الأعماق، كما ينطلق صوته الخافت الهامس، في قصائد الحب والعاصف الثائر فى قصائد الوطنية، إنه الصوت الذي حارب كل أشكال وفنون الإستبداد مثيرا في الأمة العربية روح التحدي ،ينشد فيها الحرية والاستقلال.

3- كما أن دعوته إلى دحر وكسر قيود الإستبداد ،منطلقة من الواقع العام لأمته داعيا في الوقت نفسه إلى الاتصال بالحياة فى أوسع معانيها مصورا الواقع الإجتماعي معبرا عن البؤس الإنساني فى الوطن العربي داعيا إلى اليقظة والتحرر .

4- كما عمل في نبذه الاستبداد على بناء حياة جديدة، في صورها المتعددة السياسية والاجتماعية والوطنية والفكرية ،داعيا إلى التطور والسير مع الحياة التي تكره المتقاعدين المتخاذلين الذين يعشون فى مقابر الأجداد.

5- كما يتجلى في خطابه هذا حسرة على المجتمع الكافر بالقيم الرفيعة، الغارق في استبداده للمرأة العابد للرواسب البالية ،التي تتخر الشخصية الإنسانية لذا تمتاز المرأةفى خطابه هذا بالتسامى والتصوف بعيدة عن المحاسن الحسية، لذا لا تعبأ إلا بالمعاني الروحية ،ومبعث هذه الحرارة التي تسري فى خطابه هذا، فشل الشاعر في تحقيق المرأة الذي يرده في واقع الحياة القاسية المستبدة للمرأة.

6- فقد كان ينشد فى خطابه هذا –خطاب الإستبداد – المجتمع الذي تتكامل له شخصيته التي تتجلى فى تقدميته الشاملة بمختلف ميادين الحياة، تقدمية تسير مع الزمن وتماشيه، ولا تقف عند الحدود الضيقة للمفاهيم التاريخية،تقدمية تتجاوب مع الكون تنبذ الاستبداد، تتفاعل مع الحياة وتضيف إلى التراث الإنساني إنتصرات جديدة فى مختلف الأفاق العلمية والفنية ،تقدمية تحقق رسالة الحياة، ولا معنى لهذه الرسالة إذ لم تكن انطلاقة متمردة،تساهم في إغناء العالم وتطويره، والمجتمع الذي يكفر بهذه الحقائق ،ويرضى

بالاستبداد ويسلم له مجتمع فاشل ميت ،غير جدير بالحياة ،فهو داء يجب أن نعمل على إبادته قبل أن يبيد الحياة.

7- وفى نقمته على الإستبداد بكل فنونه، تنطلق هاتفات الشابي، متمردة طليقة مؤمنة بالحياة والطموح، كارهة لحياة الاستبداد، متطلعة إلى السمو، مترفعة عن الجمود والركود، الذي لا يليق بأبناء الحياة المؤمنين بغدهم،

أما إذا كانت هناك كلمة لابد من قولها فى الشابى، فإننا لن نستوفي حقه، ولا نملك إلا أن ننحني إكبارا وإجلالا لهذه الروح القومية التي لم تكن تغالب كل فنون الاستبداد والاستعباد والظلم والطغيان فحسب، وإنما كانت تغالب الفناء نفسه، فقد كان الشابي قيتارة لم تلبث أن تحطمت، بعد أن أعيت أوتارها أصابع المأساة ،التي زادات قوتها الأفات والعلل، لكن على الرغم من قصر عمرها فقد أسمعت ألحانها آذان الزمن وخلدت روعودها وألحانها سويداء الحياة.

تمهيد :

أ – الشابي " حياته وثقافته وآثاره .

- **حياته .**
- **ثقافته .**
- **آثاره .**

ب – صدى الشابي في الشرق العربي والعالم .

- **صدى الشابي في الشرق العربي .**
- **صدى الشابي في العالم .**

شكر وعرفان

اللهم لك الحمد عدد ماكان ، وعدد مايكون ،وعدد الحركات والسكون، لك الحمد والشكرن والثناء الحسن لفتحك أبواب رحمتك ،فى سبيل طلب العلم.

ملء الفؤاد أقول حمدا خالقي
حمدا يترجم مايجيش بخافقي
لولاه ما خط يميني صفحة
ولما إستوى قلمي وأرسل ناطقي
فله المحامد كلها عدا الحصى
وانشق أو أتى إلا من غاسق

وعرفانا مني بالجميل، أتقدم بالشكر إلى كل من أمدني بالمساعدة،قى إنجاز هدا العمل،وأمدني بنصائحه ومساندته المعنوية وتشجعا ته الدائمة،والمتواصلة حتى يكون هدا العمل فى صورته هده ،وأخص بالشكر مع فائق الاحترام والتقدير الدكتور< مجناح جمال> الذي كان صبورا وحليما فى تعامله معي،والذي أمدني بفيض علمه، ووافر توجهاته.

إلى كل من قدم يد العون،ولم يبخل علينا ، ولو بكلمة طيبة ،تجدد المعنويات وتبث فينا من أجل الاستمرار والمثابرة ،عسى أن يلقى عملي هذا، الاستحسان والقبول.

عفاف

ملخص:

طالما كان الاستبداد وسيبقى داء معطلا لحركة التقدم في المجتمعات ونمط سياسيا يمقته ويحاول التخلص منه كل الآدميون ذلك أن النفوس جبلت على النفور من القيود ومقاومة التكبيل والتضييق فالحرية نوعا من الحقوق المقدسة التي لا يجوز المساس بها والتي تشمل كافة جوانب الحياة فإذا ماغرقت في أعماق التسلط والاستبداد صرخ الإنسان واستغاث رغبة في استرداد ذلك الحق المسلوب. لذا تهدف هذه الدراسة إلى تقديم قراءة لخطاب الاستبداد في شعر أبو القاسم الشابي إذ يعد من الشعراء المبرزين في الشعر العربي الحديث الذي حارب في خطابه الشعري كل أشكال وفنون الإستبداد مثيرا في الأمة العربية روح التحدي ينشد فيها الحرية والاستقلال كما وجدت في خطابه هذا مادة تستحق البحث ، وقد قامت هذه الدراسة على ثلاث فصول فصل تمهيدي بعنوان أبو القاسم الشابي وعالمه الإبداعي حاولت الإلمام فيه ببعض الجوانب ،من حياة أبو القاسم الشابي وأثاره الأدبية التي تجاوز صداها تونس إلى الشرق العربي والعالم.

كما قمت في الفصل الأول بضبط مفاهيم الخطاب والاستبداد، وذلك بالتطرق إلى مفهوم الخطاب لغة، واصطلاحا كما عرجت على مفهوم الخطاب عند الغرب القدامى والمحدثين، كذلك عند العرب القدامى والمحدثين، وقدمت مفهوما لغوي للاستبداد كما قدمت مفهوما للإستبداد في اصطلاح السياسيين،أما الفصل الثاني قمت فيه بدراسة تجليات الاستبداد في خطاب الشابي من خلال تقديم نماذج من ديوانه ومن خلال تحليل بعض القصائد من ديوان أغاني الحياة، ثم اختتمت البحث.بأهم النتائج التي توصلت إليها ومن أهمها:

1–خطاب الاستبداد هذا أداة للمشاركة الصحيحة في الحضارة الإنسانية وإيقاظ الأمة العربية وبعثها وزادا لايخلو من ومضات رائعة تخاطب الإنسان في أفقه الشامل .

2–كما أن دعوته إلى دحر قيود الإستبداد منطلقة من الواقع العام لأمته داعيا في الوقت نفسه إلى الاتصال بالحياة في أوسع معانيها مصورا الواقع الاجتماعي معبرا عن البؤس الإنساني في الوطن العربي

3–كما عمل في نبذه الإستبداد على بناء حياة جديدة في صورها المتعددة السياسية والاجتماعية والوطنية والفكرية داعيا إلى التطور والسير مع الحياة التي تتجاوب مع الزمن وتماشيه وتضيف إلى التراث الإنساني انتصارات جديدة.

As long as the tyranny and will remain disease hang for movement progress in the communities and pattern of politically and tries to get rid of it all that the soul is inherent to an aversion to the constraints and resistance shackling and restricting freedom is a kind of rights sacred that can not be compromised and that includes all aspects of life if Magrguet in the depths of authoritarianism and tyranny shouted rights and the desire to recover the right.

So This study aims to provide reading of the speech tyranny in the poetry of Abu El Kacem Chebbi as one of the poets in modern Arabic poetry، which fought in his poetic all forms of arts tyranny exciting in the Arab nation Roe h challenge seeks the freedom and independence as found in his speech this item worthy of research، has this study three chapters of the introductory chapter entitled Abu El Kacem Chebbi and his creative world tried familiarity in which certain aspects of the life of Abu El Kacem Chebbi and literary raised that resonate exceeded Tunisia to the Arab Middle East and the world.

I have also in the first quarter set the concepts of discourse and tyranny، and that by addressing the concept of speech language، and idiomatically also put a on the concept of discourse in the West، old and modern، as well as the Arabs old and modern، and made understandable language of tyranny also presented a concept of tyranny in the terminology of politicians، Chapter II you the study manifestations of tyranny in a speech Chebbi by offering models of his office and through the analysis of some of the poems from the Court of songs of life، then concluded search

The most important findings is the most important:

1 –tyranny speech this tool the right to participate in the human civilization and the awakening of the Arab nation and sent victuals to Aakhalo of brilliant flashes addresses the rights in the universal horizon.

2 –The call to defeat tyranny flying restrictions of reality to the nation calling at the same time to connect with life in the broadest sense photographer social reality expressing the human misery in the Arab world

3 –also worked in the About tyranny to build a new life in various forms of political، social and national intellectual and calling to and walk with the evolution of life that respond to Time ،and add to the human heritage new victories.

الفصل الأول

ضبط مفاهيم الخطاب والاستبداد

أولا : مفهوم الخطاب

1- لغة

2- اصطلاحا

ثانيا: عند الغرب القدامى والمحدثين

ثالثا: عند العرب القدامى والمحدثين

رابعا: مفهوم الاستبداد

1- لغة

2- الاستبداد في اصطلاح السياسيين

خامسا: من هو المستبد؟

الفصل الثاني

تجليات الاستبداد في خطاب الشابي ديوان أغاني الحياة أنموذجا دراسة تحليلية

أولا: القدر والمرض
ثانيا: الموقف من تقاليد المجتمع
ثالثا: المرأة وتحريرها من عبودية الزمن وأدران الجسد
رابعا: استبداد المستعمر
خامسا: الشعب المستعبد
سادسا: خطاب الحرية

قائمة المصادر و المراجع

الفهرس

مقدمة

الخاتمة

التفصل التمهيدي

أبو القاسم الشابي
وعالمه الإبداعي

أولا : حياته ثقافته أثاره الأدبية

1- حياته

2- ثقافته

3- أثاره الأدبية

ثانيا: صدى الشابي في الشرق العربي

ثالثا: صدى الشابي في العالم

أولا: مفهوم الخطاب

1 – لغة.

تـذهب التفسـيرات المعجمية،عنـد ابـن منظـور أن معنـى الخطـاب لغـة " الخطـاب والمخاطبـة : مراجعـة الكلام،وقد خاطبـه بـالكلام مخاطبـة وخطابـا وهمـا يتخاطبـان والمخاطبـة صيغة مبالغة تفيد الاشتراك والمشاركة في فعل ذي شأن"[1].

وقد وردت كلمـة الخطـاب فـي" معجم الوسيط" بمعنـى "الكـلام والرسـالة"[2] . والخطـاب كمفردة لغوية تشير إلى مصدر الفعل، خاطب يخاطب خطابا،وهو يدل على توجيه الكلام لمن يفهم[3] .

فالخطـاب يحدد بأنـه اللغـة،التي يسيطر عليهـا المتكلم فـي حالـة استعمال[4] . ليكـون بـذلك مرادفا للكلام ذلك أن الخطاب خلق لغة من لغة [5] .

فالخطاب كفعل لغوي،يقع في تحديده بين الملفوظ والمكتوب[6] . فإذا كان الملفوظ هو الإنجاز القولي والتاريخي للجملة،فإن الخطاب هو مجموعة من الملافيظ[7] .

أما" ريبول"و موشلار" في معجمهما الموسوعي للتداولية،1994 يعرفان الخطاب بكونه نشاطا إنسانيا،تثيره رغبة وهدف معين[8] .

---

(1) – ابن منظور: لسان العرب، طبعة دار الجيل ودار لسان العرب، بيروت، عام 1988 ، مجلد 2 ص 856 .

(2) – معجم اللغة العربية : المعجم الوسيط، أخرجه إبراهيم مصطفى وآخرون، دار الدعوة، استانبول، عام 1989 م ، ص 243

(3) – عبد الهادي بن ظافر الشهري : استراتيجيات الخطاب مقاربة لغوية تداولية، دار الكتاب الجديد المتحدة ، بيروت، 2004 م ،ط1 ، ص 36 .

(4) – أحمد مداس: لسانيات النص نحو منهج لتحليل الخطاب الشعري، جدار للكتاب العالمي، عمان الأردن، 2007 ، ص 10

(5) – الأسلوب والأسلوبية: الدار العربية للكتاب، ط2 ،1982 ، ص117.

(6) – نور الدين السد :الأسلوبية وتحليل الخطاب دراسة في النقد العربي الحديث – تحليل الخطاب الشعري والسردي، ج2 ، دار هومة للطباعة والنشر والتوزيع، الجزائر ، 1997 ، ص 11 .

(7) – موسوعة أنكارتا: أقراص ممغنطة، تحميل 2006 .

(8) – رابح كحلوش: الخطاب دورته أكاديمية محكمة تعنى بالدراسات والبحوث العلمية في اللغة والأدب، دار الأمل للطباعة والنشر والتوزيع، الجزائر تيزي وزو، العدد3 ، (سنة بدون)، ص 28 .

وقد وردت مادة " خ، ط، ب " في القرآن الكريم اثني عشرة مرة،موزعة على اثني عشرة سورة " خاطبهم، تخاطبني، خطبك، الخطاب،وخطابا تكلم معه والخطب الشأن الذي تقع فيه المخاطبة"[1] .

وقد ورد لفظ الخطاب في قوله تعالى : " وشددنا ملكه وأتيناه الحكمة وفصل الخطاب " [2] .

وفي قوله تعالى : " فقال إكفلنيها وعزني في الخطاب "[3] .

والملاحظ أن التفاسير المختلفة ،ربطت بين الخطاب والكلام،عند تفسير الآيتين السابقتين حيث أجمعت الآيتين،على أن مفهوم الخطاب هو الكلام البين الواضح،الذي لا لبس فيه حيث يقول الزمخشري : "إنه الكلام البين الدال على المقصود بلا التباس" ومنه نستنتج تلازم الخطاب والكلام،ويرى الزمخشري أيضا أنه يجوز أن يراد بمعنى الخطاب في الآية القصد الذي ليس فيه اختصار مخل ولا إشباع ممل[4] .

وقد أدرك الباقلاني هذا الأمر في القرآن الكريم فقال:" إذا تأملته تبين بخروجه عن أصناف كلامهم وأساليب خطابهم إنه خارج عن العادة وأنه معجز وهذه خصوصية ترجع إلى جملة القرآن وتميز حاصل في جميعه "[5] .

والخطاب هو مقطع كلامي يحمل معلومات يريد المرسل المتكلم أو الكاتب أن ينقلها إلى المرسل إليه أو السامع أو القارئ و يكتب الأول رسالة،ويفهمها الآخر بناء على نظام لغوي مشترك بينهما[6] .

في حين وردت لفظة الخطاب في "منجد في اللغة العربية المعاصرة " بمعنى" الكلام الموجه إلى الجمهور من المستمعين في مناسبة من المناسبات " [7] .

---

[1] – معجم اللغة العربية: معجم ألفاظ القرآن الكريم، الهيئة العامة لشؤون المطابع الأميرية، القاهرة، 1996 م،المجلد 2 مادة خطبه نورد فيما يأتي بعض صيغ ورود المادة " خ.ط.ب " في القرآن الكريم وبعض الآيات التي تضمنتها :

[2] – سورة ص: آية 20 .

[3] – سورة ص: آية 23.

[4] – عبد القادر شرشار: تحليل الخطاب الآبي وقضايا النص، منشورات اتحاد كتاب العرب، دمشق،2006 ،ص 78

[5] – أبو بكر محمد بن الطيب بن محمد: إعجاز القرآن، تحقيق السيد أحمد صخر، دار المعارف (د،ت)، ص 35

[6] – إميل يعقوب : قاموس المصطلحات اللغوية والأدبية، دار العلم للملايين، بيروت، عام 1987 ، مادة (خطب) .

[7] – المنجد في اللغة العربية المعاصرة: دار المشرق، بيروت، عام 2000 م، ص 396 .

ذلك أن جذور مصطلح الخطاب،تعود إلى عنصري اللغة والكلام،فاللغة عموما نظام من الرموز يستعملها الفرد للتعبير عن أغراضه،والكلام إنجاز لغوي فردي يتوجه به المتكلم إلى شخص آخر يدعى المخاطب .

ومن هنا تولد مصطلح الخطاب بعده رسالة لغوية،يبثها المتكلم إلى المتلقي فيستقبلها ويفك رموزها[1] .

كما يعرف أسلوب الخطاب بأنه " أسلوب يعتمد على المحسنات اللفظية والتأثير " [2] .

مما سبق نخلص إلى أن الجذور اللغوية للفظة الخطاب، يدور معناها حول الكلام يقصد الإبانة وحول ما يتلفظ به .

2 – الخطاب اصطلاحا:

عرف "معجم المصطلحات الأدبية المعاصرة" الخطاب بأنه "مجموع التعابير الخاصة، التي تتحدد بوظائفها الاجتماعية،و مشروعها الإيديولوجي"[3] .

أما مصطلح خطاب discours " المأخوذة عن الاتينية"discoursus" فقد نشأت مع "هاريس" الأمريكي بحيث كانت الدراسة، موجهة لدراسة الخطاب الإشهاري " الاختصار " لذا لا يركز على مفاهيم اللغة،بل السياق يتوصل رسالة معينة .

لذا عرف" هاريس" الخطاب اصطلاحا بأنه: " وحدة لغوية،تنتجها آليات المتكلم تتجاوز أبعاد الجملة أو الرسالة "[4] .

وعرفه أيضا بأنه" ملفوظ طويل،وهو متتالية من الجمل، تتكون من مجموعة منغلقة، يمكن من خلالها معاينة بنية سلسلة من العناصر ،بواسطة المنهجية التوزيعية وبشكل يجعلنا نظل في مجال لساني محض "[5] .

واجتهد في تعريف الخطاب اصطلاحا،العديد من الباحثين الذين تميزت بحوثهم بالصبغة الإبستمولوجية، وبالأخص تلك المنتمية لفكر ما بعد الحداثة،إذ قدموا مجموعة من الاجتهادات والتعريفات،التي ينتمي معظمها لمدارس ما بعد الحداثة الأدبية منها قول:

---

(1) – عبد القادر شرشار: تحليل الخطاب الآبي وقضايا النص ،ص 134 .

(2) – المنجد في اللغة العربية المعاصرة: ص 396 .

(3) – سعد علوش : معجم المصطلحات الأدبية المعاصرة، الدار البيضاء، عام 1985 م، ص 83 .

(4) – رابح كحلوش:الخطاب،ص 28 .

(5) – editionde ،Essie de linguistique 1970 paris, 31 .– p 30 .

"بنفنست : " إن الخطاب هو كل لفظ، يفترض متكلما ومستمعا، وعند الأول هدف التأثير على الثاني بطريقة ما " . وقول "هارتمان وستورك" إن الخطاب نص محكوم بوحدة كلية واضحة، يتألف من صيغ تعبيرية متوالية، تصدر من متحدث فرد يبلغ رسالة ما "[1] .

ذلك أن العمل الأدبي هو خطاب في نفس الآن إذ يوجد سارد يروي القصة وهناك في مواجهة قارئ يتقبلها ويهتدي إليها[2] .

ويعرف "ميشيل فوكو" الخطاب بقوله: " الخطاب مجموعة من الملفوظات ،بوصفها تنتمي إلى نفس التشكيلة الخطابية، فهو ليس وحدة بلاغية،أو صورية قابلة لأن تتكرر إلى ما لا نهاية، بل هو عبارة عن عدد محصور من الملفوظات،التي نستطيع تحديد شروط وجودها، إنه تاريخي من جهة أخرى، جزء من الزمن وحدة وانفصال في التاريخ ذاته يطرح مشكلة حدوده الخاصة وألوان قطيعته وتحولاته،والأنماط النوعية لزما نيته بدل أن يطرح مشكلة انحباسه المباغت وسط تواطئ الزمن" [3] .

ومن ثم لا يكون النص كما يعتقد بعض النقاد،إلا خطابا مثبتا بواسطته الكتابة وهو تسمير تنجر عنه، ولا ريب مخاطر تصيب اللب المتمثل في الدلالة[4] .

وأورد الدكتور" طه عبد الرحمن" تعريفا اصطلاحيا للخطاب فقال : " إن المنطوق به – أي الخطاب – الذي يصلح أن يكون كلاما،هو الذي ينهض بتمام المقتضيات التواصلية الواجبة في حق ما يسمى خطابا" .

إذ حد الخطاب أنه كل منطوق به،موجه إلى الغير بغرض إفهامه، مقصودا مخصوصا[5] .

أما "الكلام فهو ما تركب من مجموعة متناسقة من المفردات،لها معنى مفيد، والجملة هي الصورة اللفظية الصغرى،أو الوحدة الكتابية الدنيا للقول،أو للكلام الموضوع للفهم أو

---

(1) – عبد الله إبراهيم : الثقافة العربية والمرجعيات المستعارة، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، سنة 1999 م، ط 1 ، ص 108 .

(2) – إتحاد كتاب المغرب العربي: طرائق تحليل السرد الأدبي، سلسلة ملفات، ط1 ، 1992 ، ص 123 .

(3) – السيد ولد أباه : التاريخ والحقيقة لدى ميشيل فوكو، الدار العربية للعلوم، بيروت، سنة 2004 م ، ط 2 ، ص 110 .

(4) – JEAN GAUNE : esthétique de la communication (que sais – je) . puf ، 1997 1 er édition ، p 99 .

(5) – طه عبد الرحمن : اللسان والميزان، طبعة المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، عام 1998 / ، ص 215 .

الإفهام، وهي تبين أن صورة ذهنية كانت قد تألفت أجزاؤها في ذهن المتكلم الذي سعى في نقلها – حسب قواعد معينة وأساليب شائعة – إلى ذهن السامع،ولا يكون الكلام تاما، والجملة مفيدة، إلا إذا روعيت فيهما شروط خاصة، ومنها ما تعود إلى متطلبات اللغة وقيودها"[1] .
"فاللغة واصفة،أي أنها مراجعة لعملية الخطاب"[2] .
في حين أن" الدلالة الحقة للخطاب، كما يعتقد بعض النقاد"[3] . لا تحيل عليها اللغة وإنما هي كامنة "خارج إطار المرجعية اللغوية،والمعنى من ثم كما يعتقد" شانون" هو فعلا ما يمنحه السياق الأنثروبولوجي والثقافي،الذي تدخل فيه المعتقدات والعادات ،وكل ما هو مشترك "[4] .
ذلك أن الخطاب" يعني الممارسة الفعلية الاجتماعية للنص"[5] . لذا فالخطاب اصطلاحا كما كما يقرر" ميشال فوكو"هو تلك الشبكة المعقدة من العلاقات الاجتماعية،والسياسية والثقافية التي أعيد إدماجها في عملية تحليل الخطاب،الذي يحمل بعدا سلطويا من المتكلم، بقصد التأثير في المتلقي، مستغلا في ذلك كل الظروف الخارج لغوية،ومعتمدا كهذا كفيل بأن تبقى للغة حيوتها، المتمثلة في السياقات التي أفرزتها،لأن الخطاب في مفهومه المجمل المبسط وضع للغة موضع الفعل" [6] .

---

[1] – ريمون طحان: الألسنية العربية، دار الكتاب اللبناني، بيروت ، عام 1981 م ، ط2 ، ص 44 .

[2] – صلاح فضل : بلاغة الخطاب وعلم النص، سلسلة عالم المعرفة، ص 212 .

[3] – نواري سعودي أبو زيد: في تداولية الخطاب الأدبي ، المبادئ والإجراءات، بيت الحكمة للنشر والتوزيع، ط1.2009 ص 16 .

[4] – JEAN LOHISSE : la communication، de la transimissiona la 5 er relation ، édition de boechunniversité، & er édition ، 2001 ،. p 68

[5] – محمد الأخضر الصحي : مدخل إلى علم النص ومجالات تطبيقية ، الدار العربية للعلوم، منشورات الإختلاف ، ط1 ط1 ، 2008 ، ص 73 .

[6] – نواري سعودي: أبو زيد في تداولية الخطاب الأدبي، المبادئ والإجراءات، ص 15 .

ثانيا: الخطاب عند الغرب القدامى والمحدثين

يرتبط الحديث عن الخطاب بالخطابة،التي فصلها "أرسطو" وأرسطو طاليس" عن الشعر، حيث نلاحظ أن الجذرين مختلفان في اللغة اللاتينية،كما يوضحه الشكل الآتي (rhetorique / discours) وقد حدد "أرسطو" مفهوم الخطاب في كتابه فن الشعر " بأنه لا يتم إلا بموافقة المقام للمقام " في حين أن الخطابة، مبنية على المبادئ الكلية يعرفها بقوله: " إنها الكلام المقنع، وهو نوع من القياس" [1] .

ويتصل مفهوم أرسطو للخطاب بالمنطق، (إذ يقو النطق الأرسطي إلى حد كبير على خصائص اللغة اليونانية، ففكرة المنطق عند أرسطو تتأثر بمعطيات لغوية نحوية، ويستعمل هذه المعطيات في الخطاب ويهدف الخطاب عند أرسطو إلى الإقناع في المحاورات والجدل الذي كان شائعا عند أرسطو) [2] .

في حين أن" أرسطو طاليس" الذي فصل هو الآخر، الخطاب عن الخطابة قال عن مكوناتها " أما اللاتي ينبغي أن يكون القول فيهن على مجرى الصناعة، فثلاث إحداهن الإخبار من أي الأشياء تكون التصديقات ،والثانية اللاتي تستعمل في الألفاظ، والثالثة أنه كيف ينبغي أن تنظم أو ننسق أجزاء القول " ونستخلص من مقولة "أرسطو" عناصر الخطابة الآتية :

1- عناصر الإقناع أو البراهين .

2- الأسلوب أو التنظيم .

3- ترتيب أجزاء القول [3] .

إلا أن أول محاولة جادة،تهدف إلى ضبط مفهوم الخطاب،ترجع إلى "أفلاطون" الذي ربط مفهوم الخطاب بالفلسفة "وشحنه بدلالته الخاصة استنادا إلى قواعد عقلية محددة الأمر

---

[1] – جميل صليبا : المعجم الفلسفي بالإلفاظ العربية والفرنسية والإنجليزية واللاتينية، ج1 ، الشركة العالمية للكتاب، بيروت، 1994 ، ص 531 .

[2] – فايز الداية : علم الدلالة العربي، النظرية والتطبيق، دراسة تاريخية تأصلية، نقدية، دار الفكر، دمشق ، عام 1996 م ، ط1 ، ص 103-104 .

[3] – أرسطو طاليس: الخطابة، ترجمة عبد الرحمن بدوي، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة، عام 1983 ، ص 181 .

الذي يمكن معه للتأكيد،أنه مع تلك المحاولات الأولى بدأت تتبلور،ملامح الخطاب الفلسفي في الثقافة اليونانية[1] .

وتعود جذور مصطلح الخطاب،إلى عنصري اللغة والكلام،فالخطاب الفلسفي يعطي الأولوية والسيادة للكلام، على حساب الكتابة، إذ أن الكلام والفكر يقومان على أساس مؤداه أن الفكر وهو يتكلم، يضل حاضر أمام ذاته ومطابقا لذاته،وأنه يقدم المعنى مباشرة بينما تتسم الكتابة بالاضطراب ،وعدم الاستقرار وتفكك المعنى، ومن ثمة فالكتابة محط شك واستبعاد عن طريق الخطاب،الذي يود إثبات حضوره لمباشرة المعنى .

والمحاورة الأفلاطونية تماثل المرويات الشفافية إذ يتجلى دور الراوي بشخص "سقراط" وهو يبسط الأفكار، ويورد الحكايات ويضرب الأمثال، ويسعى خلال ذلك لإثارة الأسئلة، وفي كل ذلك يبدوا مفارقا لما يتكلم به لأنه يستعير الحوادث والوقائع والحكايات ويرسلها، هادفا إلى التأثير في المتلقي،وهذا المتكلم الراوي المفارق هو أهم خصائص المرويات الشفافية القديمة[2] .

وفي تاريخ اللسانيات نجد أن علماء اللغة، يفرقون بين الخطاب وبين الحديث، إذ أن الحديث يمكن أن يجمع في عينة لغوية واحدة،ويحلل إلى عناصر صغرى بدء بالصوت الفونيم لأنه أصغر وحدة، بينما تحليل الخطاب يسير في اتجاه آخر، إذ أن الجملة هي الوحدة الصغرى التي يحلل إليها[3] .

ويعرف تحليل الخطاب بأنه" دراسة النص،في علاقته مع ظروف إنتاجه" وهو نفس التعريف تقريبا الذي ورد في معجم تحليل الخطاب (dictionnaire d'annalyse du discours) حيث جاء فيه: " يرجع تحليل الخطاب إلى العلاقة بين النص والسياق" [4] .

أما الخطاب فيرادف الكلام لدى "دي سوسير" ومن سمات الكلام التعدد والتلون والتنوع، والخطاب عنده يعارض اللغة إذ يوضح سوسير الفرق بين اللغة والكلام بقوله : " إن اللغة والكلام عندنا ليسا بشيء واحد، فإنما هي منه بمثابة قسم معين وإن كان أساسيا والحق

---

[1] – الموسوعة الفلسفية العربية: معهد الإنماء العربي، مج 1 ، بيروت ، 1986 ، ص 771 .

[2] – عبد الله ابراهيم :لسردية العربية، المركز الثقافي العربي، بيروت لبنان، عام 1992 ، ص 11–16 .

[3] – عبد الستار جواد : اللغة الإعلامية، دراسة في صناعة النصوص الإعلامية وتحليلها، منشورات دار الهلال للترجمة ، عمان ، عام 1988 ، ص 51 .

[4] – محمد الأخضر الصبيحي :مدخل إلى علم النص ومجالات تطبيقه ، ص 73–74 .

يقال، فهي في الآن نفسه نتاج اجتماعي لملكة الكلام،ومجموعة من الموضوعات يتبناها الكيان الاجتماعي، ليمكن الأفراد من ممارسة هذه الملكة وإذ أخذنا الكلام جملة بدا لنا متعدد الأشكال متباين المرقومات،موزعا في الآن نفسه إلى ما هو فردي وإلى ما هو اجتماعي أما اللغة فهي على عكس ذلك، كل بذاته ومبدأ من مبادئ التبويب " [1] .

أما الفرق بين اللغة " discourse " فيتضح من أطروحات عالم فقه اللغة " فرديناد دي سوسير " إذ قال:" فاللغة كما يسمونها، تعد شيئا اجتماعيا يمتلكه المجتمع بأسره، أما الخطاب فيعني بالنسبة إليه منجز فردي فاللغة وسيلة ممكنة، بينما الخطاب يؤخذ على أنه أنشطة وممارسات فعلية اتصالية"[2] .

ويباين" إيميل بنفست" بين الخطاب،والمنظومة اللغوية فيقول : " تعتبر الجملة وهي ابتكار غير معرف،يتخذ أصنافا وألوانا، جوهر الكلام الإنساني كقواقع لغوي،ونستنتج من ذلك أننا نغادر معها عالم اللغة،كمنظومة من الرموز ونلج قي عالم أخر وهو عالم اللغة كأداة للاتصال تجد تعبير في الخطاب " [3] .

والبين من هذا التعريف،بل المفهوم منه أن كل مجموعة من الملافيظ يجمع بينهما علاقة موضوعية مرجعية،إنما هي خطاب[4] .

في حين نجد"هالمسلاف" ذهب إلى التسوية بين النص والخطاب،لفظا وكتابة بحيث عرف الخطاب بأنه ملفوظ كيفما كان منطوقا أو مكتوبا طويلا أو قصيرا قديما أو حديثا[5]
ويعرف: "إميل بنفست" الخطاب هو الملفوظ،منظر إليه، من وجهة آليات وعمليات اشتغاله في التواصل، وبمعنى أخر هو كل تلفظ يفترض، متكلما ومستمعا عند الأول هدف التأثير على الثاني بطريقة ما"[6] .

---

[1] – فرديناند دي سوسير: دروس في الألسنية العامة، ترجمة صالح القرماوي و آخرين، الدار العربية للكتاب، ليبيا، تونس، 1985 ، ص 29 .

[2] – سعيد يقطين : تحليل الخطاب الروائي، المركز الثقافي العربي ، بيروت ، عام 1989 م ، ط 1 ، ص 17 .

[3] – سارة مليز: الخطاب ، ترجمة يوسف بغول، منشورات مخبر الترجمة في الأدب و اللسانيات، جامعة منتوري، قسنطينة ، مطبعة البعث قسنطينة ، 2004 ، ص 3.

[4] – رابح كحلوش :الخطاب ، ص 28 .

[5] – أحمد مداس : لسانيات النص ، ص 10 .

[6] – سعيد يقطين : تحليل الخطاب الروائي ، ص 17 .

أما شو لتر " sholter " فقد عرف الخطاب بأنه " تلك الجوانب التقويمية، والتقديرية أو الإقناعية أو البلاغية في نص ما،أي في مقابل الجوانب التي تسمى أو تشخص أو تنقل فقط " [1] .

ويؤكد "هندس وهرست" أن الخطاب هو أفكار وضعت في نظم محددة،من التعاقب نتجه لآثار محدودة، تتمثل في طرح القضايا،ثم نقدها وحلها وهي بمثابة نتيجة لذلك النظام"[2] .

فالبحث عن قوانين الخطاب يعني البحث عن إنجاح العملية التواصلية [3] .

لذا يذهب كل من" جافري ليتش ومايكل شورت" إلى أن الخطاب " اتصال يعتبر صفقة بين المتكلم والمستمع" ونشاطا متبادلا بينهما وتتوقف صبغته على عرضه الاجتماعي" بينما يعتبر النص ببساطة اتصالا لغويا محكيا" كان أو مكتوبا تفنن وسيلته المسموعة والمرئية " ويعلق" هوثرون" على المفارقة ين النص والخطاب" قد يكون النص مكتوبا بينما يكون الخطاب محكيا ،وقد لا يكون النص تفاعليا بينما يكون الخطاب" فيقول: " يعالج مايكل ستابس مفهومي النص والخطاب،وكأنهما مترادفان لكنه يلاحظ أنه في استعمالات كذلك،وقد يكون النص طويلا أو قصير،ا لكن الخطاب يوحي بطول معين ويتميز النص بانسجام في الشكل والصيغة، بينما يطبع الخطاب انسجام أعمق من حيث الدلالة والمعنى "[4] .

وقد يتضح الفرق أكثر بإجراء موازنة مختصرة بين كل من علم النص وتحليل الخطاب، وفعلا يعرف الأول بأنه الدراسة اللغوية، التي تهدف إلى الكشف عن مجموع القواعد التي تنظم بناء مختلف النصوص، وعن المعايير التي تميز النص عن اللانص كما يعرف أيضا بأنه العلم الذي يصف النظام الداخلي للنص، وطريقة بنائه ووظيفة كل جزء فيه بينما يعرف تحليل الخطاب،بأنه دراسة النص في علاقته مع ظروف إنتاجه،وهو نفس

---

[1] – روبرت شولتر : السيماء والتأويل ترجمة سعيد الغانمي، المركز الثقافي ، بيروت ، عام 1993 ، ص 48 .

[2] – ديان مكدونيل : مقدمة في نظريات الخطاب ترجمة وتقديم عز الدين اسماعيل ، المكتبة الأكاديمية ، القاهرة ، عام 2001 م .

[3] – الخطاب : دراسة أكاديمية محكة تعني بالدراسات والبحوث العلمية في اللغة والأدب ، دار الأمل للطباعة والنشر والتوزيع، العدد 2 ، 2007 ، ص 226 .

[4] – سارة مليز : ترجمة يوسف بغول ، ص 3 .

التعريف تقريبا الذي ورد في معجم تحليل الخطاب (pictionnaire d'analyse du discours) حيث جاء فيه يرجع تحليل الخطاب إلى العلاقة بين النص والسياق[1] .

ويحيل" فوكو" foucomechal" الخطاب إلى فكرة استنبطت من واقع معرفي بقوله : " إن كل خطاب ظاهر ينطلق سرا وخفيه من شيء لم يقل أبدا ... وكتابته ليست سوى باطن نفسها " ويحدد فوكو تعريفا للخطاب بقوله : " الخطاب هو النصوص والأقوال كما تعطي مجموع كلماتها ونظام بنائها وبنيتها المنطقية أو تنظيمها البنائي "[2] .

إن " تحليل الخطاب " الذي استخدمه" فوكو" يعد واحدا من الطرق المقترحة لتحليل الإيديولوجيات، والخطابات عند ميشيل فوكو تعني التجسيدات، " النصوص " المنظمة للمعرفة وللممارسة في تمفصلها مع الزمان والمكان، وقد كشفت خطابات معينة عن وجود " إدراك " محدد، وهو المصطلح الذي استخدمه" فوكو" ليشير إلى وجود منظومة من العلاقات أكثر تعقيدا "[3] .

ويباين" روجو فاولر" بين الخطاب والإيديولوجيا فيقول : " إن الخطاب كلام أو كتابة ينظر إليهما من زاوية الاعتقادات،وما إلى ذلك أسلوب نظر إلى العالم وتنظيما وتمثيلا للتجربة، أي الإيديولوجيا بالمعنى الموضوعي الحيادي، إن مختلف أنماط الخطاب ترمز إلى مختلف أشكال تمثيل التجربة،ومصدر هذه الأشكال من التمثيل،سياق الاتصال الذي يكمن فيه الخطاب "[4] .

وقد عرف" موشلر" الخطاب على أنه " الحوار " متأثرا بآراء مدرسة بيرفكام التي حصرت الخطاب في " الحوار " والتي أثرت في تعريفات العديد من اللسانيين الذين يكتبون بالإنجليزية ومثال ذلك " مايكل هوو " في كتابه " حول ظاهر الخطاب " الذي أكد بأنه سيتعامل مع الخطاب باعتباره " المنولوج" شفويا كان أم كتابيا "[5] .

---

(1) – محمد الأخضر الصبيحي: مدخل إلى علم النص ومجلات تطبيقه، ص 74 .

(2) – ميشيل فوكو : حفريات المعرفة ، ترجمة ، سالم يفوت ، المركز الثقافي العربي ، الدار البيضاء ، عام 1987 م ، ص 25–31 .

(3) – السيد يسين : بحثا عن هوية جديدة للعلوم الاجتماعية في الوطن العربي، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت ، عام 1986 ، ص 398 .

(4) – سارة مليز : الخطاب ، ص 4 .

(5) – عبد الستار جواد : اللغة الإعلامية ، ص 70.

وهكذا نرى أن مدلولات مصطلح خطاب تتعدد لكنها لا تتعارض في تعريفها له بأنه ممارسة لملكية اللغة غير أنها تختلف في زاوية النظر إلى هذه الممارسة بمعنى أن الاختلاف لا يمس مضمون اللفظية وهذا التعدد عند الدارسين الغربيين راجع إلى تعدد مجالاتهم واختصاصاتهم[1] .

ومنه نخلص إلى أن (لفظ الخطاب عند الغرب ،هو الكلام المكتوب أو الملفوظ الذي يتجاوز الجملة الواحدة ،وتعريفات الخطاب تشير إلى أنه مجموعة دالة من أشكال الأداء اللفظي، حيث تشكل الجمل نظاما متتابعا، تسهم به في نسق كلي متغاير ومتحد الخواص، ويتضمن جملة من الأفكار التي تعبر، عن رؤية لها منطقها الخاص) [2] .

ثالثا: الخطاب عند العرب القدامى والمحدثين

يمكن الاستدلال على مفهوم الخطاب في التراث العربي . انطلاقا من التفاسير القرآنية المختلفة التي وقفت عند قوله تعالى : " وشددنا ملكه وأتيناه الحكمة وفصل الخطاب" أو قوله تعالى: " فقال إكفلنيها وعزني في الخطاب " والملاحظ أن التفاسير المختلفة ربطت بين الخطاب والكلام، عند تفسير الآيتين السابقتين، حيث أجمعت على أن مفهوم الخطاب، هو الكلام البين الواضح،الذي لا لبس فيه حيث يقول الزمخشري : " إنه الكلام الملخص الذي يتبينه من يخاطب به، لا يلتبس عليه المقصود به، إفهام من هو متهيئ لفهمه " [3] .

وذهب الزمخشري إلى أن الكلام هو: " تركيب من كلمتين أسندت إحداهما إلى الأخرى" [4] .

وعرف ابن جني الكلام على أنه الخطاب : " كل لفظ مستقل بنفسه مفيد لمعناه يتسم بالأصل الشفهي"[5] .

---

[1] – سعيد يقطين : تحليل الخطاب الروائي ، ص 26 ، بتصرف

[2] – محمد الماكري : الشكل والخطاب، المركز الثقافي العربي ، بيروت ، 1991 م ، ص المقدمة .

[3] – الزمخشري: الكشاف ، دار الكتاب العربي ، بيروت ، عام 1978 ، ج 4 ، ص 80 .

[4] – سيف الدين الأمدي: منتهى السول في علم الأصول، الجمعية العلمية الأزهرية المصرية، القاهرة، ج1 ، ص17 .

[5] – ابن جني: الخصائص، تحقيق محمد لي النجار ،الهيئة المصرية العامة للكتاب : القاهرة:عام 1999 م ، ط 4 ، ج 1 ، ص 32

ويؤكد" الجرجاني" أن الكلام هو : " المعنى المركب،الذي فيه الإسناد التام أو ما تضمن كلمتين بالإسناد "[1] .

وربط "التهاوني" أيضا بين الخطاب والكلام، فذهب إلى أن الخطاب بحسب أصول اللغة هو :" توجيه الكلام نحو الغير للإفهام "[2] .

ويعرف "الأمدي" الخطاب فيقول :" إن الخطاب هو الملفوظ المتواضع عليه المقصود به إفهام من هو متهيئ لفهمه "[3] .

وخص الأمدي،الكلام الموسوم بالبيان والتبيان وتجنب الإبهام والغموض واللين، بمعنى الخطاب فخلق تلازما بين المصطلحين " كلام وخطاب "[4] .

ومنه نستنتج تلازم الخطاب والكلام في التراث العربي أما في النقد العربي فيعرف محمد مفتاح الخطاب على أنه : – مدونة كلامية : أي أنه مؤلف من كلام .

– حدث: فكل خطاب حدث يقع في زمان ومكان معينين .

– تواصلي: يهدف لتوصيل معلومات ومعارف .

– تفاعلي: أي أن الوظيفة التواصلية ليست هي كل شيء بل هناك الوظيفة التفاعلية التي تقيم علاقات اجتماعية بين أفراد المجتمع .

– مغلق : له بداية ونهاية .

– تداولي : تنتج عنه أحداث لغوية لاحقة له [5] .

أما"عبد الله الغذامي" فقد فرق بين النص والخطاب،على قاعدة اللغة والكلام، فهو خطاب ما دام ملفوظ وهو نص،متى سود بياض الصفحات[6] .

---

[1] – علي بن محمد الجرجاني : التعريفات ، مكتبة لبنان بيروت ، عام 1978 ، مادة كلام .

[2] –التهاوني: كشاف اصطلاحات الفنون، تحقيق لطفي عبد البديع، الهيئة العامة للكتاب، القاهرة، 972 ،ج 2 ص 175 .

[3] – سيف الدين الأمدي : الإحكام في أصول الإحكام ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، عام 1980 ، ج 1 ، ص 136 .

[4] – سيف الدين الأمدي : المبين في شرح ألفاظ الحكماء والمتكلمين ، تحقيق عبد الأمير الأعسم ، بغداد 1985 ، ص 385 .

[5] – أحمد مداس : لسانيات النص ، ص : 10

[6] – أحمد مداس : لسانيات النص ، ص 18 .

أما عن مفهوم الخطاب حديثا فيرى" السيد يسين" أن الفضل في صك الخطاب ونشره يعود إلى مفكرين وكتاب في المغرب العربي ... وأن مصطلح " الخطاب " يعني في عمومه أسلوب التناول، أو صياغة وعرض الأفكار والقضايا والمشكلات "[1] .

ويحدد "محمد عابد الجابري" مفهوم الخطاب حديثا بأنه : " بناء من الأفكار إذ تعلق الأمر بوجهة نظر، يعبر عنها تعبيرا استدلاليا، وإلا فهو أحاسيس ومشاعر، فن أو شعر يحمل وجهة نظر، أو هو هذه الوجهة من النظر مصوغة في بناء استدلالي،أي استعمال مواد " مفاهيم " ولابد من إقامة علاقات معينة بين تلك المواد حتى يصبح بناء يشد بعضه بعضا – الاستدلال – أو المحاكمة العقلية – وسواء تعلق الأمر بالمواد أو بطريقة البناء فلابد من تقديم أو تأخير و لابد من تضخيم أو بتر ... " ولما كان كل بناء يخضع لقواعد معينة تجعله قادرا على أداء وظيفته، فإن الخطاب يعكس كذلك مدى قدرة صاحبه على احترام تلك القواعد، أي على مدى استثماره لها لتقديم وجهة نظره إلى القارئ،بالصورة التي تجعلها تؤدي مهمتها لدى هذا الأخي،مهمته الإخبار والإقناع ... ويفرق" الجابري بين الخطاب والتأويل فيقول :" النصوص مجموعة لها جانبان : ما يقدمه المرسل وهو " الخطاب " وما يصل المتلقي وهو " التأويل " .[2] .

ويأتي تعريف "عبد السلام المسدي "للخطاب بأنه خلق لغة من لغة، يستوجب الاعتقاد بوجود لغة ذات انسجام نوعي وعلاقات، تربط أجزاءها داخل النظام اللغوي العام متقاربا مع غيره من الباحثين، غير معتد لا بملفوظه ولا بمكتوبة إنه،التحول من اللغة كمعطى اجتماعي إلى اللغة كمعطى فردي، تكتسب فيه التراكيب خصوصية تتعلق بالمتكلم ويكشف مميزاتها المتكلم، فهو حينئذ ظاهرة أسلوبية خاصة وحقيقة الخطاب التي دأب المسدي على إيضاحها،خلاصتها تجعل من الخطاب طريقة تعبيرية ورسالة لغوية،تستند الأولى على الأسلوب من حيث شعرية الانزياح والعدول داخل النظام السميائي على ضوء ثنائية الكفاء " compétence " والأداء " performance " وتستند الثانية على البعد التواصلي الافتراضي المخاطب والمخاطب .

---

[1] – السيد ياسين : بحثا عن هوية جديدة للعلوم الاجتماعية في الوطن العربي ، ص 379 .

[2] – محمد عابد الجابري : الخطاب العربي المعاصر ، دار الطليعة ، بيروت ، عام 1982 م ، ص 17–18–35 .

ويقتضي الطرح التفريق بين الملفوظ كمرادف للمكتوب ،وبين التلفظ كفعل إنتاج كلامي آن، وكلاهما مرتبط بالتواصل، فمادامت عملية التخاطب قائمة، فالحديث منوط بالتلفظ، فإذا انتهت فالحديث ينصرف إلى الملفوظ[1] .

وفهم عبد السلام المسدي " الخطاب " على " أنه الكلام أو المقال وعده كيانا أفرزته علاقات معينة، بموجبها التأمت أجزاؤه وقد تؤكد عن ذلك تيار يعرف الملفوظ الأدبي بكونه جهازا خاصا من القيم،طالما أنه محيط ألسني مستقل بذات وهو ما أفضى إلى القول بأن الأثر الأدبي بنية ألسنية تتحاور مع السياق المضموني تحاورا خاصا "[2] .

أما الخطاب عند "جابر عصفور" فهو : " الطريقة التي تشكل بها الجمل نظاما متتابعا، تسهم به في نسق كلي متغير ومتحد الخواص،أو على نحو يمكن معه أن تتآلف الجمل في خطاب بعينه،لتشكل خطابا أوسع ينطوي على أكثر من نص مفرد،وقد يوصف بأنه مساق العلاقات المتعينة،التي تستخدم لتحقيق أغراض معينة " [3] .

ويفرق الأستاذ" الحداد" بين القول والخطاب،فالقول هو " أداء ممأسس " institutionnalise "، يراعي الشروط الصورية للقبول اللغوي – قواعد النحو والصرف مثلا – أما الخطاب فيخضع لنوع مواز من القواعد والآليات، لا علاقة لها بالبنى الماقبلية للغة [4] .

ولقد جرى" يقطين" – رغم اشتغاله على نصوص سردية في تتبع أثر النص والخطاب – على مسح التوافقات والتعارضات بين المصطلحين، مع طوائف عدة من الباحثين .

ليستخلص أن الخطاب مظهر نحوي، يتم بواسطة إرسال القصة وأن النص مظهر دلالي، يتم من خلاله إنتاج المعنى من لدن المتلقي ... في الخطاب لنقف عند حدود الراوي والمروى ... له وفي النص تتجاوز ذلك إلى الكاتب والقارئ،إنه توسيع مشروع تؤسسه على قاعدة الترابط والانسجام بين الحكي كخطاب، والحكي كنص وبين باقي مكوناتها بالقصة .

إن تأمل كلام" سعيد يقطين" يؤدي بالضرورة إلى تصور تلك الفر وقات بين النص والخطاب على مستوى النحو والدلالة وعلى مستوى عملية التواصل (الراوي والمروي له /

---

(1) – أحمد مداس : لسانيات النص : ص 19 .

(2) – عبد السلام المسدي : الأسلوبية والأسلوب ، الدار العربية للكتاب ، ليبيا ، عام 1997 م ، 110 .

(3) – جابر عصفور :البنيوية من ليفي شتراوس إلى فوكو ، دار الأفاق العربية ، بغداد ، عام 1985 م، ص 269 .

(4) – محمد الحداد : حفريات تأويلية في الخطاب الإصلاحي العربي ، ص 23 وما بعدها .

القارئ والكاتب) بفعل التجاوز لأنه يغلب فكرة النص خطاب مترابط مثبت بواسطة الكتابة،يقوم على الترابط والانسجام من جهة،والتواصل من جهة أخرى[1] .

وليس الخطاب عند" سعيد يقطين" غير " الطريقة التي تقدم بها المادة الحكائية في الرواية، وقد تكون المادة الحكائية واحدة،لكن ما يتغير هو الخطاب في محاولته كتابتها ونظمها، فلو أعطينا لمجموعة من الكتاب الروائيين مادة قابلة لأن تحكي،وحددنا لهم سلفا شخصياتها وأحداثها المركزية وزمانها وفضاءها لوجدناهم يقدمون لنا خطابات تختلف باختلاف اتجاهاتهم ومواقفهم،وإن كانت القصة التي يعالجون واحدة)[2] .

أما مصطفى ناطف فقد وسع نطاق حين نجده أنه أشار (إلى وجود خطابات كثيرة وطرق مختلفة لدراستها مؤكدا أن العلاقات الاجتماعية لا يستوعبها خطاب واحد ولا يمكن أن يعتبر الخطاب الأدبي خلاصة واقعية لنشاط اللغة الكثيف المتقاطع)[3] .

---

[1] – أحمد مداس : لسانيات النص ، ص 18–19 .

[2] – سعيد يقطين : تحليل الخطاب الروائي ، ص 7 .

[3] – مصطفى ناصف : اللغة والتفسير والتواصل ، سلسلة عالم المعرفة عام 1995 ، ص 332 .

رابعا: مفهوم الاستبداد

1- الاستبداد لغة:

هو غرور المرء برأيه،والأنفة عن قبول التضحية أو الاستقلال في الرأي وفي الحقوق المشتركة .

2- الاستبداد في اصطلاح السياسيين:

" هو تصرف فرد أو جمع في حقوق قوم بالمشيئة وبلا خوف وقد تطرق مزيدات على هذا المعنى الاصطلاحي، فيستعملون في مقام كلمة " استبداد" كلمات: استعباد، واعتساف وتسلط ،وتحكم وفي مقابلتها كلمات : مساواة وحس مشترك وتكافؤ، وسلطة عامة ويستعملون في مقام صفة "مستبد " كلمات جبار وطاغية، وحاكم بأمره،وحاكم مطلق. وفي مقابلة " حكومة مستبدة " كلمات: عادلة، ومسئولة ، ومقيدة ،ودستورية ويستعملون في مقام وصف الرعية " المستبد عليهم "كلمات: أسرى ومستصغرين،وبؤساء ومستبدين ،وفي مقابلتها : أحرار ،وأباة وأحياء ،وأعزاء.

هذا تعريف" الاستبداد" بأسلوب ذكر المرادفات والمقابلات وأما تعريف الاستبداد بالوصف فهو التصرف في شؤون الرعية، كما يشاء المستبد بلا خشية حساب ولا عقاب محققين"[1] .

خامسا: من هو المستبد؟

تكلم بعض الحكماء،لاسيما المتأخرون منهم في وصف الاستبداد بجمل بليغة بديعة تصور في الأذهان شقاء الإنسان كأنها تقول له : هذا عدوك فانظر ماذا تصنع،ومن هذه الجمل قولهم: " المستبد يتحكم في شؤون الناس بإرادته" لا بإرادتهم ويحكمهم بهواه لا بشريعتهم، ويعلم من نفسه أنه الخاص المتعدى،فيضع كعب رجله على أفواه الملايين من الناس يسدها عن النطق بالحق والتداعي لمطالبته " .

" المستبد عدو الحق، عدو الحرية وقاتلهما،والحق أبو البشر والحرية أمهم، والعوام صبية أيتام نيام لا يعلمون شيئا والعلماء هم إخوتهم الراشدون إن أيقظوهم هبوا وإن دعوهم لبوا وإلا فيتصل نومهم بالموت ".

---

[1]- عبد الرحمن الكواكبي: طبائع الاستبداد ومصارع الاستعباد، تقديم الدكتور أسعد السحمراني، دار النفائس، بيروت لبنان، ط3 ، 1427 هـ، 2006 م، ص 37-38 .

" المستبد يتجاوز الحد ما لم ير حاجزا من حديد، فلو رأى الظالم على جنب المظلوم سيفا لم أقدم على الظلم، كما يقال الاستعداد للحرب يمنع الحرب " .

" المستبد إنسان مستعد بالطبع للشر وبالإلجاء(*) للخير، فعلى الرعية أن تعرف ما هو الخير وما هو الشر، فتلجئ حاكمها للخير رغم طبعه، وقد يكفي للإلجاء مجرد الطلب إذا علم الحاكم أن وراء القول فعلا، ومن المعلوم أن مجرد الاستعداد للفعل فعل يكفي شر الاستبداد " .

" المستبد يود أن تكون رعيته كالغنم درا وطاعة، وكالكلاب تذللا وتملقا، وعلى الرعية أن تكون كالخيل إن خدمت خدمت وإن ضربت شرست،وعليها أن تكون كالصقور لا تلاعب ولا يستأثر عليها بالصيد كله، خلافا للكلاب التي لا فرق عندها أطعمت أو حرمت حتى من العظام. نعم على الرعية أن تعرف مقامها هل خلقت خادمة لحاكمها تطبعه إن عدل أو جار،وخلق هو ليحكمها كيف شاء بعدل أو اعتساف، أم هي جاءت به ليخدمها لا ليستخدمها! والرعية العاقلة تقيد وحش الاستبداد بزمام تستميت دون بقائه في يدها لتأمن، من بطشه فإن شمخ هزت به الزمام وإن صال ربطته" (1) .

والاستبداد أعظم بلاء لأنه وباء دائم بالفتن،وجدب مستمر بتعطيل الأعمال، وحريق متواصل بالسلب والغصب، وسيل جارف للعمران وخوف يقطع القلوب وظلام يعمي الأبصار، وألم لا يفتر، وصائل لا يرحم وقصة سؤ لا تنتهي .

وإذا سأل سائل : لماذا يبتلي الله عباده بالمستبدين ؟ فأبلغ جواب مسكت هو : إن الله عادل مطلق لا يظلم أحدا، ف يولي المستبد إلا على المستبدين . ولو نظر السائل نظرة الحكيم المدقق لوجد كل فرد من أسراء الاستبداد مستبدا في نفسه لو قدر لجعل زوجته وعائلته وعشرته وقومه والبشر كلهم حتى وربه الذي خلقه تابعين لرأيه وأمره .

فالمستبدون يتولاهم مستبد والأحرار يتولاهم الأحرار وهذا صريح معنى: " كما تكونوا يولى عليكم" .

(*) - الإلجاء : الاضطرار والإكراه

(1)– عبد الرحمن الكواكبي: طبائع الاستبداد ومصارع الاستعباد، ص 41–42

ما أليق بالأسير في أرض أن يتحول عنها إلى حيث يملك حريته فإن الكلب الطليق خير حياة من الأسد المربوط[1].

[1]– عبد الرحمن الكواكبي: طبائع الاستبداد ومصارع الاستعباد، ص 44 .